رحلة من طرابلس الغرب
إلى الحدود الغربية لمصر
1817

باولو ديلا تشيلا

ترجمة آلية

مراجعة وتحرير

توفيق عيّاد الشقروني

2026م

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

سلسلة الأعمال المترجمة (10) ترجمة آلية

رحلة من طرابلس الغرب إلى الحدود الغربية لمصر 1817

باولو ديلا تشيلا

ترجمة آلية

مراجعة وتحرير

توفيق عياد الشقروني

2026م

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

عنوان الكتاب: رحلة من طرابلس الغرب إلى الحدود الغربية لمصر 1817

المؤلف: باولو ديلا تشيلا

ترجمة آلية

مراجعة وتحرير

توفيق عياد الشقروني

الناشر:الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge

السنة 2026م

سلسلة الأعمال المترجمة (10)

التصميم والإخراج: الناشر

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

إهداء

آدم توفيق الشقروني

فهرس المحتويات

VIAGGIO

DA TRIPOLI DI BARBERIA

ALLE FRONTIERE OCCIDENTALI

DELL' EGITTO,

Fatto nel 1817

Dal D.re P. DELLA-CELLA,

e scritto in Lettere

AL SIG. D. VIVIANI,

Professore di Botanica e Storia naturale nella Regia Università di Genova.



GENOVA,
Dalla Tipografia di A. PONTHENIER.
Anno 1819.

مقدمة المراجع

يتجاوز تقديم نص رحالة كلاسيكي إلى القارئ العربي المعاصر حدود النقل اللغوي التقليدي، ليكون بمثابة استعادة لمشهد تاريخي غائب، لا سيما حين يتعلق الأمر بعمل الطبيب والرحالة الإيطالي باولو ديلا تشيلا الذي رافق حملة الباي أحمد عام 1817م. ويقف هذا الكتاب، الذي سُطّر في الأصل باللغة الإيطالية، كوثيقة استثنائية استمدت قيمتها من دقة التقارير العلمية التي تخللت السرد اليومي؛ إذ تجلت فيه رؤية المؤلف بوصفه طبيباً وعالماً في النبات والجيولوجيا، مما مكنه من رصد تضاريس المنطقة الشرقية من ليبيا في لحظة تاريخية مفصلية، عكست بوضوح صراعات السلطة وتحولات الحياة الاجتماعية مطلع القرن التاسع عشر.

وقد استوجب العمل على هذا النص في نسخته التي بين أيدينا، والمنبثقة عن تعاون علمي بين الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية ومؤسسة Libyan Word Bridge، تبني منهجية حديثة في الترجمة؛ حيث تم الاستناد ابتداءً إلى تقنيات الذكاء الاصطناعي في نقل المتن من

لغتــه الإيطاليــة الأم. ومــع إدراكنــا لمــا توفـره هــذه التقنيــات مــن ســرعة فــي المعالجــة، إلا أننــا نــدرك فــي الوقــت ذاتــه أن روح النــص التاريخــي وخصوصيتــه الجغرافيــة والاجتماعيــة تظــل بحاجــة ماســة إلــى التدخــل البشـري الواعـي. ومـن هنـا، انصبّ جهـدي فـي المراجعـة والتحريـر علـى تقويـم البنـاء اللغـوي، وتطويـع التراكيـب الآليـة لتسـتقيم مـع البيـان العربـي، مـع الحفـاظ الدقيـق علـى المصطلحـات العلميـة والطبيـة التي أوردهـا المؤلف فــي سـياقها الأصلــي.

إن الأمانـة العلميـة تقتضـي التنويـه إلـى أن هـذا النـوع مـن الترجمـات، المدعومــة تقنيــاً، يواجــه تحديــاً جوهريــاً يتمثــل فــي «تعريــب المســميات». فقـد دوّن المؤلـف أسـماء المـدن والقـرى والآبـار والقبائـل الليبيـة كمـا تناهـت إلـى سـمعه بأذنـه الإيطاليـة، أو كمـا اسـتقاها مـن خرائـط تلـك الحقبـة التـي شـابتها الكثيـر مـن الأخطـاء النطقيـة. لـذا، سيجد القـارئ أن بعض المسميات قـد تبـدو غريبـة أو مخالفـة للمسـتقر محليـاً، وقـد آثرنـا الإبقـاء علـى بعضهـا مـع محاولـة الضبـط مـا أمكـن، لتظـل شـاهداً علـى رؤيـة «الآخـر» للمـكان مـن جهـة، ولفتـح بـاب التحقيـق الجغرافـي أمـام الباحثيـن مـن جهـة أخـرى. إننـا نضـع بيـن يـدي القـارئ نصـاً يقـرُّ فـي مواضعـه بضـرورة «مزيـد مـن الضبـط»، وهـو أمـر طبيعـي فـي ظـل تداخـل لغـات الرحلـة وترجماتهـا.

ولمزيـد مـن الموثوقيـة العلميـة، أُلحـق بالكتـاب كشـاف تحليلـي شـامل،

صُمم ليكون أداة طيعة تستقصي كافة الأعلام والأماكن والمفاهيم الواردة، مما ييسر عملية البحث والاسترجاع. إن هذا الجهد، الذي يزاوج بين حداثة التقنية ودقة المراجعة البشرية، نأمل أن يكون إضافة نوعية للمكتبة التاريخية الليبية، ونافذة نطل منها على تفاصيل رحلة شاقة حملت ملاحظات علمية واجتماعية نادرة، موثقةً ملامح البلاد قبل قرنين من الزمان. وختاماً، نرجو أن نكون قد وفقنا في تقريب هذا الإرث وتيسيره، مع الإقرار بأن العمل يظل مفتوحاً على التصويب والمراجعة من قبل السادة المتخصصين والمهتمين.

توفيق عياد الشقروني
طرابلس، 2026م

إهداء المؤلف

إلـى صاحـب السـعادة السـيد الكونـت والبـارون د. جورجيـو ديـس جينيـس، جنـرال الجيـش، والقائـد العـام للقـوات البحريـة التابعـة لجلالـة ملـك سـردينيا، ورئيـس المجلـس الأعلـى للأميراليـة، والحاكـم المؤقـت لدوقيـة جنـوة، وحامـل وسـام الصليـب الأكبـر مـن منظمـة القديسـين موريـس ولعـازر، وقائـد الوسـام الملكـي لـ سـافويا صاحـب السـعادة، إنهـا رحلـة بدأت علـى طـول خـط سـاحلي، حيـث غالبـاً مـا ترسـو سـفننا... وبيـن شـعوب كانت فـي كل الأزمـان معاديـة للملاحيـن، ولا يمكـن إلا أن تثيـر اهتمـام سـعادتكم، أنتـم الذيـن عهـد إليكـم جلالـة الملـك بحكمـة بالغـة القيـادة العليـا لأسـطوله.

لقـد وقـع الاختيـار عليكـم فـي أوقـات أخـرى لتكونـوا قائـداً لسـفن «الجالـي» التابعـة لجلالتـه، حيـث تمكنتـم فـي مناسـبات عـدة مـن كسـر شـوكة هـؤلاء القرصـان؛ ولا يـزال هـؤلاء يمثلـون موضـوع مراقبتكـم الآن، بعـد أن ازدادت قـوة الدولـة، حيـث أصبحـت هنـاك قـوة متفوقـة تعـزز الثقـة فـي المعاهـدات، وتكبـح جمـاح أي مـن مشـاريعهم العدائيـة.

لـذا، فإننـي أقـدم لسـعادتكم ثمـرة جهـدي هـذه، واثقـاً مـن أننـي لا أعـرض عليكـم أمـراً غريبـاً عـن اهتماماتكـم. وبينمـا لا تـزال عالقـة فـي ذهنـي الطبيعـة الشرسـة لهـؤلاء البرابـرة، يعزينـي التفكيـر فـي أن مشـاعر الخـوف الماضيـة يمكـن أن يحـل محلهـا الآن شـعور عـام بالامتنـان تجـاه الملـك المحبـوب الـذي، مـن خـلال تعزيـز التجهيـزات البحريـة، قـد كفـل سـلامة وطمأنينـة الملاحيـن.

لي الشرف أن أكون، مع أسمى آيات الاحترام،
لصاحب السعادة،
خادمكم الأكثر تواضعاً وطاعةً،

باولو ديلا شيلا

مقدمة المؤلف

ثمــة ملاحظــات هامــة أودّ وضعهــا بيــن يــدي القــارئ الكريــم قبــل الولــوج فــي تفاصيــل هــذه الرحلــة. إن الدوافــع التــي أدت إلــى القيــام بهــذه المهمــة والظــروف التــي رســمت معالــم مســارها ستجدونها مفصلــة فــي ثنايــا التقريــر.

بــدأت القصــة فــي أواخــر عــام 1816، حيــن كنــت متواجــدًا فــي طرابلس برفقــة الســيد ف. بارتولوميــو بــوكاردي (قنصــل جلالــة الملــك لــدى تلــك الحكومــة). كنــا نترقــب فرصــة ســانحة لاستكشــاف الشــريط الســاحلي الممتد مــن مدينــة طرابلــس، مــرورًا بضفــاف «ســرت الكبــرى» وإقليــم «برقــة»، وصــولًا إلــى الحــدود الغربيــة لمصــر.

كانــت هــذه المنطقــة تمثــل «فجــوة بيضــاء» فــي خرائطنــا المعاصــرة، فلــم تُســفر جهــود الرحالــة المعاصريــن عــن ســدّ هــذا الفــراغ المعرفــي. كان ثمــة إيمــان راســخ بــأن خليــج «ســرت» العظيــم، بتوغلــه العميــق فــي قلــب القــارة الأفريقيــة، لا بــد أن يخبــئ وراءه عجائــب طبيعيــة وظواهــر تســتحق التدويــن.

أمــا برقــة، فكانــت تداعــب الخيــال بــكل مــا ورثنــاه عنهــا مــن أســاطير

القدمـاء؛ فهـي أرض «حوريـات السـيلف»،[1] والبـلاد التـي تجـود بتربتهـا ثـلاث مـرات فـي العـام،[2] وموطـن «حدائـق الهسـبريدس» الأسـطورية،[3] حيـث الربيـع الدائـم ومـلاذ المباركيـن.[4]

وجـدتُ ضالتـي المنشـودة حيـن سـير باشـا طرابلـس حملـة عسـكرية صغيـرة فـي شـتاء عـام 1817 نحـو تلـك الأنحـاء، ممـا وفّـر لـي غطـاءً أمنيًـا سـمح لـي بالمغامـرة فـي هـذه الرحلـة التـي طـال انتظارهـا.

يسـعدني اليـوم أن أضـع بيـن يـدي الجمهـور ثمـار تلـك الجهـود. لقـد تمسـكتُ بنسـختي الأصليـة مـن التقريـر التـي كُتبـت فـي ظـروف اسـتثنائية؛ فبينمـا كنـت مضطـرًا للاختـلاط بسـكان تلـك المناطـق طـوال اليـوم، كنـت ألـوذ بخيمتـي مسـاءً لأرحـل بخيالـي إلـى أوروبـا، مسـتحضرًا حواراتـي مـع أسـتاذي الجليـل الـذي شـجعني بحـرارة علـى هـذا المسـعى.

بنــاءً علــى نصيحــة أســتاذي، آثــرتُ التضحيــة بســرد المغامــرات الشـخصية المثيـرة التـي لا تخـدم الغـرض العلمـي، وركـزتُ بـدلاً مـن ذلـك

1-سترابو، كتاب «موقع العالم»، الجزء 17. - سكايلاكس، «الرحلة». - بطليموس، «الجغرافيا».(المؤلف)

حوريات السيلف : إشارة إلى نبات «السيلفيوم» الشهير الذي كان ينمو فقط في إقليم قورينا (شحات حالياً)، وكان أغلى من الذهب في العصور الرومانية واليونانية لاستخداماته الطبية والغذائية، وصُوّر كثيراً في الأساطير والعملات القديمة. (المراجع)

2-هيرودوت، كتاب «التاريخ»، الجزء الرابع. (المؤلف)

التربة التي تجود ثلاث مرات: هذه إشارة تاريخية ذكرها المؤرخ اليوناني هيرودوت، واصفاً خصوبة أرض برقة التي تسمح بحصاد المحاصيل في فترات زمنية متلاحقة بسبب تنوع مناخها بين الساحل والجبل. (المراجع)

3-سترابو (نفس المصدر المذكور)، سكايلاكس (نفس المصدر المذكور). (المؤلف)

حدائق الهسبريدس: وفقاً للأساطير اليونانية، هي حدائق مقدسة تقع في أقصى الغرب (ربما بالقرب من بنغازي الحالية)، تنمو فيها أشجار التفاح الذهبي التي تمنح الخلود. (المراجع)

4-هيرودوت (نفس المصدر المذكور). (المؤلف)

علـى دراسـة طبيعـة البـلاد، مظهرهـا، ومنتجاتهـا.

جمعـتُ عينـات صخريـة مـن كل تغيير فـي التربـة لاحظتـه، وهـي مودعـة الآن فـي متحف الجامعـة الملكيـة فـي جنـوة لتكـون ركيـزة لدراسـة جيولوجيـا المنطقـة.

علـى الرغـم مـن جفـاف تربـة «سـرت» ورمالهـا، إلا أنهـا تحتضـن نباتـات نـادرة. وفـي برقـة ركـزتُ على «اللوتـس» و»السيلفيوم» الشـهيرين. وأودعـتُ هـذه المجموعـة لـدى البروفيسـور فيفيانـي، الـذي يعكـف علـى إصـدار كتـاب (Specimen Floræ Libicæ)، رغـم الصعوبـات التقنيـة فـي تصنيـف النباتـات المجففـة.[1]

يديـن هـذا التقريـر بجـزء كبيـر مـن قيمتـه للرسـوم التوضيحيـة والتحليـلات الجغرافيـة التـي قدمهـا الأسـتاذ، حيـث ربـط بيـن مشـاهداتي الميدانيـة ومـا نقلـه لنـا الأقدمـون عـن تلـك المناطـق المنسـية.

أود التنويـه إلـى أن الخريطـة المرفقة لا تهـدف إلـى التحديد الجغرافـي الدقيـق للمواقـع بالمعنـى الرياضـي؛ فإلـى جانـب غيـاب الأدوات القياسـية الكافيـة، كانـت عمليـة قيـاس المسـافات شـديدة التعقيـد بسـبب التعرجـات المستمرة فـي الرمـال الشاسـعة التـي تفتقـر إلـى مسـارات ثابتـة. وحتـى أدق الخرائـط المعاصـرة، بمـا فـي ذلـك خريطـة «آرو سـميث»، تظـل قاصـرة عـن الإحاطـة بتفاصيـل هـذه المنطقـة المجهولـة.

بمـا أن هـذه الخرائـط تقتصـر علـى رسـم خـط السـاحل، فهـي لا تقـدم تصـوراً حقيقيـاً لطبيعـة الأرض الفيزيائيـة، بـل إنهـا تقـع فـي الخطـأ أحيانـاً عنـد تحديـد اتجـاه الجبـال. ومـن هنـا، حاولـت تلافـي هـذه النواقـص عبـر التحديـد الدقيـق لاتجـاه المرتفعـات كلمـا لـزم الأمـر، ووصـف طبيعـة التربـة سـواء كانـت رمليـة أو زراعيـة أو غابـات، مـع توضيـح مصـادر الميـاه مـن

1-هو ينوي أن ينشر قريباً عملاً بعنوان Specimen Florae Libicae (عينة من النباتات الليبية). وبما أن الأمر يتعلق بنباتات جافة، فقد تأخر عمله بسبب صعوبة تحديد خصائصها بدقة، ليتمكن من رسمها ووصفها. (المؤلف)

ينابيع وآبار أو حتى مستنقعات وبرك؛ وكل ذلك بهدف تقديم معرفة موثوقة وشاملة حول طبيعة تلك المناطق. وكان لزاماً عليّ تنبيه القارئ الكريم إلى هذه النقاط المتعلقة بتقريري الموجز الذي أضعه بين يديه.

الرسالة الأولى: من طرابلس الى تاجوراء

لقد أمضيت في طرابلس شهرين، لم ينقطع فيهما تفكيري عن جمع عينات من النباتات أو المعادن أو أي مقتنيات طبيعية أخرى أهديها لأستاذي، لتكون شاهداً على أن البعد لم يطمس شغفي بالعلم، ولم يمحُ تقديري العميق لدروسه. غير أن رغباتي تلك اصطدمت بواقع لم أكن أدركه في البداية؛ فقد كنت أتخيل طرابلس بشكل مغاير، إذ تبين أنها تقوم على شاطئ لا يجد فيه الباحث في المعادن سوى الرمال، وتندر فيه النباتات بسبب القحط أو التوسع العمراني.

وعلى بعد فراسخ قليلة من المدينة، تعج الأرياف بجماعات من البدو الرحل، حيث يمثل النهب أقل المخاطر التي قد يتعرض لها المرء عند الاحتكاك بهم. أما تلك المدن المزدهرة التي عرفتها ليبيا قديماً، فقد غدت مهجورة؛ ففي هذا الشريط الساحلي الممتد لنحو 900 ميل بين طرابلس وخليج بومبا، لا يكاد يوجد سكان مستقرون خارج التجمعات الرئيسية في طرابلس وتاجوراء وزليتن ومصراتة وبنغازي ودرنة.

وفي تلك الفيافي المحيطة بسرت الكبرى، يغدو الأمان الوحيد في ألا تلتقي بأحد؛ فهذه العزلة، وإن كانت تحمي المسافر من خطر القتل، إلا أنها تتركه في مواجهة الجوع والعطش. وفي عمق تلك الأراضي، لا يوجد سكن يأوي إليه المرء سوى خيام البدو، الذين اكتسبوا بفضل التصورات الرومانسية سمعة واسعة في كرم الضيافة، وهي السمعة التي كلفت الكثير من المسافرين حياتهم، حين ظنوا واهمين أنهم سيجدون في هؤلاء اللصوص ورثة لفضائل الأنبياء الأوائل. والآن، سأشرع في

شرح خريطة أفريقيا التي وضعها الجغرافي البارز آرو سميث، موضحاً المسار الذي سلكته الرحلة.[1]

بينما عبر العديد من الرحالة هذه الأصقاع في اتجاهات شتى، فانطلق بعضهم من مصر وصولاً إلى فزان ثم طرابلس، وحاول آخرون النفاذ من طرابلس نحو الصحراء الكبرى وبلوغ تمبكتو أو ضفاف النيل، إلا أن أحداً منهم لم يسلك الطريق المؤدي إلى المدن الخمس وأرض قورينا وبرقة العريقة. ورغم ما سببه لي هذا الانقطاع من قلق، إلا أنني أبشركم بأنني سأطأ ضفاف سرت المهجورة العاصفة، وسأتمكن بفضل هذه الرحلة من رفد علم النبات بتفاصيل نباتات ليبيا، دون خشية من خنجر بدوي أو غائلة جوع؛ إذ يرافقني جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وتدعمنا قافلة ضخمة من الجمال المحملة بالمؤن. ولن أطيل عليكم بذكر مسببات هذه الرحلة، فرب ضارة نافعة، إذ تحولت بعض الظروف القاسية لصالح العلم والمعرفة.

ومن بين من وصفهم القدماء بوحوش أفريقيا، يبرز «محمد القراماللي»، الابن الأكبر لباشا طرابلس، كنموذج للقسوة المطلقة والروح البليدة التي لم يمسها عقل؛ فقد عُرف ببطشه الذي وصل حد إعطاء عبيده جرعات من الزرنيخ ليتسلى بمراقبة سكرات موتهم. هذا الرجل أرسله والده سابقاً لإخضاع قبائل متمردة في بنغازي رفضت

1-آرون آرو سميث (Aaron Arrowsmith: 1750- 1823): هو أحد أبرز الجغرافيين ورسامي الخرائط البريطانيين في عصره، شغل منصب الهيدروغرافي الملكي للملك جورج الرابع. اشتهرت خرائطه، لا سيما خريطة أفريقيا الصادرة في أوائل القرن التاسع عشر، بدقتها المتناهية واعتمادها على أحدث تقارير الرحالة ونتائج الأرصاد الفلكية. كانت خريطته تمثل المرجع العلمي الأهم الذي استند إليه الدكتور باولو ديلا تشيلا في رحلته عام 1817؛ حيث استخدمها المؤلف كأداة للمقارنة بين الواقع الجغرافي الذي عاينه وبين (الفجوات البيضاء) أو المناطق المجهولة التي كانت لا تزال تفتقر للتفاصيل الدقيقة في الخرائط الأوروبية آنذاك، خاصة في المنطقة الممتدة من خليج سرت وصولاً إلى دواخل إقليم برقة. (المراجع)

دفع الجزية، فأبادهم عن بكرة أبيهم. لكنه بعد عودته، لم يعد يطيق الانصياع لوالده، بل ووصل به الأمر إلى محاولة طعنه بخنجر إثر مشادة بينهما، فنجا الباشا بفضل تضحية أحد العبيد. وبدلاً من معاقبته، نفاه والده بتعيينه والياً على بنغازي ودرنة، وهناك تحالف مع قبيلة «الجوازي» القوية المتمردة، ليصبح زعيماً للعصيان ضد والده.

أمام هذا التمرد المتسارع، جهز الباشا حملة عسكرية بقيادة ابنه الثاني «باي أحمد» لسحق المتمردين. وبما أن الباي كان يتمتع ببصيرة نادرة، فقد رغب في مرافقة طبيب للحملة. ونظراً لمعرفة الباشا بمهنتي، تواصل مع ابن عمي القنصل «بارتولوميو بوكاردي»[1] لطلب تعييني في هذا المنصب، فوافق القنصل دعماً لخططي الاستكشافية. ورغم ما قد يكتنف هذه الحملة من مخاطر، إلا أنني آثرت عدم الغرق في التفكير الذي يضعف العزيمة، فمتعة استكشاف بلد مجهول والمفاجآت غير المتوقعة هي جوهر أي رحلة مثيرة.

قد يتساءل المرء كيف يحشد هؤلاء جيوشهم ويؤمنون قوتهم وسط الفيافي القاحلة، وهنا تكمن موارد البربرية الخاصة؛ فبمجرد إعلان الحرب، صدرت الأوامر لشيوخ القبائل بتجنيد الرجال واللحاق بالجيش في نقاط محددة، والتوجه لطرابلس لاستلام الخيام والرايات. وكانت الرايات الخضراء مخصصة للمرابطين ذوي القداسة والعمداء ممن ينتسبون لآل البيت. وقبل الرحيل بخمسة أيام، نُصبت الخيام في «سهل المسيح»[2] إيذاناً ببدء الحرب، بينما قضى «باي أحمد» أيامه الأخيرة

1-بارتولوميو بوكاردي (Bartolomeo Boccardi): دبلوماسي إيطالي من جنوة، تولى منصب قنصل عام مملكة سردينيا في طرابلس الغرب (1810-1820 تقريباً). (المراجع)

2-سهل المسيح (Piana di Mescia): هو منطقة سهلية ساحلية تقع شرق مدينة طرابلس، وتبعد عنها نحو 40-50 كيلومتراً، في المنطقة المعروفة حالياً بـ (القره بوللي) وما جاورها وصولاً إلى مشارف (قصر الأخيار). كانت هذه المنطقة تُمثل تاريخياً إحدى أهم نقاط التجمع العسكري والقوافل المنطلقة من العاصمة

يتبـرك بالأضرحـة والتعاويـذ طلبـاً للنصـر.

غادرنـا طرابلـس فـي الحـادي عشـر مـن فبرايـر، وودع الباشـا ابنـه حتـى خيامنـا الأولـى فـي سـهول تاجـوراء. وانطلقنـا بخمسـمائة شـخص مـن كبـار المسـؤولين والمماليـك والعبيـد، علـى أن يكتمـل عـدد الجيـش بعد عبـور خليـج سـرت حيـث تـزداد الكثافـة السـكانية، مـا لـم تتسـع رقعـة التمـرد وتتغيـر الـولاءات. وخـلال مسـيرنا، كانـت النسـاء يسـتقبلن البـاي بترانيـم «لـو لـو لـو» (الزغاريـد) التـي تشـبه فـي صخبهـا وتداخلهـا أصـوات الضفـادع فـي المستنقعات الصيفيـة، وهـي طقـوس اسـتقبال معتـادة فـي تلـك البـلاد. وبعـد مسـير سـاعتين، وصلنـا إلـى معسـكرنا فـي تاجـوراء، حيـث كانـت القـوات قـد بـدأت فـي التجمـع، فـي مشـهد مـن الفوضـى والبدائيـة التـي لا تثيـر سـوى ازدراء أي جنـدي نظامـي، إذ غابـت عنـه أبسـط قواعـد التنظيـم العسـكري.

يسـتمر المشـهد فـي المعسـكر غارقـاً فـي البدائيـة، فـلا أثـر لنظـام عسـكري أو زي موحـد يربـط بيـن هـؤلاء المقاتليـن؛ بـل إن «الفقـر واللامبـالاة» همـا السـمة الوحيـدة المشـتركة بينهـم. يتسـلح الجنـدي ببندقيـة ومسدسـات رديئـة، ويلتحـف بمعطـف صوفـي رث، مسـتبدلاً الأحذيـة بقطـع مـن جلـد الجمـل المجفـف تحـت الشـمس، يربطهـا إلـى قدميـه بحبـال خشـنة. وتتدلـى مـن حزامـه جيـوب جلديـة بسـيطة للبـارود والرصـاص. ولأن الدولـة لا تتكفـل بمؤنهـم، فـإن دافعهـم الوحيـد للانضمـام لقـوات الباشـا هـو الحصـول علـى شـرعية «النهـب» والعيـش علـى حسـاب سـكان المناطـق التـي يمـرون بهـا.

تعتمـد معيشـة الجنـدي المعتـاد علـى الفاقـة علـى تدابيـر بسـيطة؛ إذ يتشـارك كل خمسـة أو سـتة جنـود فـي شـراء جمـل يحمـل مؤنهـم مـن الشـعير ودقيقـه، الـذي يعجنونـه ليصبـح «عصيـدة» أو يتناولونـه نيئـاً كالحبـوب.

نحو الأقاليم الشرقية (سرت وبرقة)؛ نظراً لاتساع أراضيها وتوفر مصادر المياه والمرعى لخيول الجيش وإبله. (المراجع)

وتقتصر أمتعتهم على حصيرة من سعف النخيل، وقربة ماء جلدية، ودلو خشبي متعدد الاستخدامات يُسمى «غاسة»، يُستعمل للعجن وغسل الملابس وسقي الدواب في آن واحد.

ومع مغيب الشمس، توافد سكان تاجوراء حاملين «البازين» (عصيدة القمح القاسي المتبلة بالزيت والفلفل) كمؤن للجيش. ومن الملاحظ أن الإفراط في استخدام التوابل الحادة والفلفل أمر أساسي في غذائهم، ولعله ضرورة لهضم العجين النيئ، إلا أنه ينهك أجسادهم ويسبب انتشار أمراض المثانة بينهم.

لقد كانت ليلتي الأولى في المعسكر تجربة فريدة؛ إذ تُنصب الخيام على شكل هلال يتجه مدخله نحو مسار الرحلة القادم. تتوسط خيمة الباي هذا الهلال، وتحيط بها خيام كبار المسؤولين والحرس من المماليك، بينما تتوزع بقية القوات في أنصاف دوائر أوسع. وفي قلب هذا التجمع، توضع المدافع البرونزية الثمانية بعرباتها البدائية، وبجانبها تُغرس «عصا القيادة» ورايات النبي التي يحرسها «الأشراف». هذه العصا تمثل رمزاً للسيادة المستمدة من السلطان العثماني، وهي الملاذ الذي يعصم أي مجرم من العقاب بمجرد لمسها. وتكشف هذه الطقوس عن هشاشة الرابط السياسي بين ولايات البربر والباب العالي، حيث باتت التبعية مجرد رموز ومظاهر خارجية، بينما تعيش الآلة السياسية في صراع داخلي دائم ولد ضعفاً يجعلنا نحن الأوروبيين عرضة لإهانات هؤلاء ما لم نردعهم.

أما نظام الحراسة، فهو مزعج للغاية ولا يهدأ؛ فبعد دوي المدفع، يطلق الضباط صيحة «باليش أوه» (انتبه)، لتنتقل الصرخة من خيمة إلى أخرى حول المعسكر طوال الليل في حلقة مفرغة من الضجيج. وتحت وطأة هذه الصيحات، أنهيت رسالتي الأولى لأتفرغ في الرسالة القادمة لوصف البلاد التي سنمر بها.

الرسالة الثانية: من لبدة إلى مصراتة[1]

يمتد سهل تاجوراء من طرابلس لمسافة اثني عشر ميلاً، وبفضل قربه من العاصمة، صار مركزاً للنشاط الزراعي والريفي. هو شريط ساحلي ضيق لا يتجاوز عرضه ثلاثة أميال، تحده من الجنوب رمال متحركة تفصله عن تلال جبال «غريان». هذه الجبال التي تلوح للمسافر عبر البحر، وترتفع بحوافها الحادة إلى حوالي 500 متر فوق مستوى سطح البحر، وتلعب دوراً حيوياً مع الندى الغزير في الحفاظ على الرطوبة اللازمة للحياة النباتية في هذا الشريط الممتد حتى رأس تاجوراء.

تُعد هذه المرتفعات، بما في ذلك قريتا «تاورغاء» و»غريان» الرابضتان عند سفوحها، إقطاعيات خاصة لأبناء الباشا من الطبقة الثانية. ومن أبرز ثرواتها الطبيعية محصولا الزعفران وأوراق «السنا»،[2] اللذان يشكلان عصب تجارة التهريب الواسعة في هذه الجبال.[3]

تغطي غابات النخيل هذا الطريق وسهول تاجوراء بأكملها، ورغم أن مظهر جذوعها الخشنة وسعفها الشائك قد يبدو غريباً أو منفراً للعين الأوروبية، إلا أنها تنسجم تماماً مع طبيعة هذه الأرض الوعرة اللافحة. ويجد السكان في هذه الشجرة ملاذاً يغنيهم عن العناء؛ فثمارها اللذيذة تضاهي أفخم الموائد، مما يشجعهم على الكسل والاتكال عليها. ورغم

1- هكذا في الاصل وهو يقصد من تاجوراء الى لبدة وسوف يتكرر العنوان في الرسالة رقم 3(المراجع)

2-نبات السنا (Senna) هو جنس كبير من النباتات البقولية، يُعرف بشكل أساسي بكونه مليّنًا عشبيًا قويًا يستخدم لعلاج الإمساك وتنقية الجسم من السموم (المراجع)

3- يلاحظ وقوع المؤلف في خلط جغرافي عند وصفه لغريان وتاورغاء؛ فبينما تقع غريان فوق قمم الجبل الغربي، تقع تاورغاء في سهل ساحلي منخفض شرق مدينة مصراتة. ويبدو أن المؤلف قد جمعهما في سياق واحد بناءً على تبعيتهما الإدارية كإقطاعيات لأبناء الأسرة القره مانلية، أو لكونهما مراكز لتجارة السلع التي ذكرها (الزعفران والسنا)، وليس بناءً على تلاصقهما الجغرافي. (المراجع)

أن تمور تاجوراء لا تصل إلى جودة تمور تونس، فإن كلاهما يتضاءل أمام روعة تمور «فزان» التي نادراً ما تصل إلى أسواق أوروبا.

ومن تقاليدهم استخلاص سائل من براعم النخلة يُسمى (اللاقمي)، وهو شراب منعش ولذيذ إذا شُرب فوراً، لكنه يتحول بالتخمير إلى نبيذ مسكر يشربونه بنهم رغم تحريم العقيدة الإسلامية للمسكرات. ويبدو أن استخدام هذا النبيذ ضارب في القدم، حيث أشار «هيرودوت» قديماً إلى تقديم نبيذ النخيل كهدية لملك الأحباش.[1]

وأعتقد أن ذلك السائل الذي يشبه المستخلص المر، والذي كان ملوك «سكان الكهوف» (Troglotidi) في الجزيرة العربية يشربونه حصراً ويستخرجونه من زهرة معينة[2] ومن المثير أن النخلة التي تُستنزف بهذه الطريقة لثلاث سنوات تتوقف عن الإثمار، لكنها تعوض ذلك بإنتاج براعم أكثر رقة. وتتخلل بساتين النخيل، لا سيما قرب طرابلس، حدائق حمضيات غناء مسيجة بالتين الشوكي، حيث يبرز البرتقال كأحد أطايب المائدة، بجانب أنواع من التين والبرقوق والتفاح تفوق جودتها ما نعرفه في بلادنا.

كما تنتشر في السهول بساتين زيتون كثيفة تتميز بخضرتها الداكنة العميقة، وتنتج زيتاً رائعاً رغم بدائية وسائل العصر. ومن المفارقات المثيرة للأسى أن بقايا الأعمدة الجرانيتية المهيبة التي نُهبت من أطلال مدينة «لبدة» (ليبتيس ماغنا) الأثرية، تُستخدم هنا كأحجار للرحى، وهي القيمة الوحيدة التي يراها هؤلاء البرابرة في تلك الآثار العظيمة.

يقطن تاجوراء حوالي 3000 نسمة من المور واليهود، يشتغلون بالزراعة وحرف السجاد والمنسوجات. وبمجرد وصولنا إلى هذه القرى، سارع الباي وحاشيته لزيارة «المرابط» الأكثر قداسة في المنطقة. ولأن طبقة المرابطين تلعب دوراً محورياً في هذا المجتمع، تجدر الإشارة

1-هيرودوت، الكتاب الثاني، 20. (المؤلف)
2-أجاثارشيدس، رحلة في البحر الأحمر، ص 45. (المؤلف)

إلـى أن نيـل هـذه المكانـة لا يتطلـب سـوى القليـل: الـزواج بامـرأة واحـدة، والامتنـاع عـن الخمـر، والإلمـام ببعـض القـراءة مـن القـرآن. وفـي مجتمـع يسـوده الجهـل والأميـة، تصبـح هـذه المؤهـلات البسـيطة كافيـة لبنـاء شـهرة دينيـة واسـعة، تـزداد بريقـاً إذا مـا أتقـن المرابـط فنـون الإبهـار والحـركات المحمومـة التـي تذهـل العامـة.

تحولـت هـذه المهنـة إلـى إرث يتناقلـه الأبنـاء عـن الآبـاء، حتـى غصـت أخصـب مناطـق طرابلـس بهـؤلاء المحتاليـن. وعنـد موتهـم، تُبنـى لهـم أضرحـة مربعـة تعلوهـا قبـاب غريبـة تُعـرف بـ «المرابـط»، وتتحـول لمـزارات يتوافـد إليهـا النـاس؛ حيـث يزعـم الأبنـاء أنهـم يتحدثـون بلسـان آبائهـم الموتـى، ويجمعـون القرابيـن والنـذور مـن أسـلحة وسـروج وفاكهـة يُحـرم علـى العامـة لمسـها، ليتسـنى «للسـيد المتوفـى» (أو ذريتـه بالأحـرى) اسـتهلاكها.

لـم يفوّت البـاي فرصـة زيـارة أي ضريـح يصادفـه بخشـوع تـام، لكنـه كان يدخلهـا خالـي الوفـاض منتظـراً مـن المرابطيـن تقديـم القرابيـن لـه. ويرافـق الجيـش دائمـاً مرابطـون يعملـون كمستشـارين للبـاي، يبيعـون للجنود تمائـم (حجـب) تحمـل نقوشـاً غامضـة يزعمـون أنهـا تحمـي مـن الرصـاص أو تضعـف حـد الخنجـر، وكلمـا زاد ثمنهـا زادت قوتهـا المزعومـة. وتسـتخدم هـذه النقـوش أيضـاً كعـلاج للأمـراض؛ حيـث تُكتـب بالحبـر داخـل الأكـواب ثـم تُـذاب فـي المـرق ليشـربها المريـض. ويُقـال إن زوجـة الباشـا الحاليـة قـد فارقـت الحيـاة بسـبب كميـات الحبـر التـي أجبرهـا أحـد المرابطيـن علـى ابتلاعهـا بهـذه الطريقـة البدائيـة. ومـن مظاهـر نفوذهـم، أن المرابطيـن يتمتعـون بحـق الدخـول علـى الباشـا، ولا يقبلـون يـده بـل كتفـه، فـي إشـارة صريحـة لمكانتهـم الرفيعـة.

فـي صبيحـة الثانـي عشـر مـن فبرايـر، غادرنـا قـرى تاجـوراء عنـد السـاعة السادسـة والنصـف، متخذيـن مسـاراً بمحـاذاة السـاحل. وبعـد مسيرة سـبع سـاعات، وصلنـا إلـى جـدول مائـي صغيـر يُعـرف بـ »وادي مِسِـت»،

وهـو الـذي منـح هـذا الشـاطئ اسـمه. ينحـدر الـوادي مـن جبـال غريـان ليصـب فـي البحـر متجهـاً مـن الجنـوب إلـى الشـمال، ورغـم أن ضفافـه تبـدو قفـرًا تمامـاً، إلا أن مياهـه لا تنقطـع عـن الجريـان فـوق قـاع موحـل. ومـع غسـق ذلـك اليـوم، نصبنـا خيامنـا علـى مقربـة مـن الـوادي، حيـث بـدأت طلائـع البدو مـن القبائـل المجـاورة بالاحتشـاد. تقـدم شيوخهم، يتقدمهم مرابط، وأخـذوا يطوفـون حـول البـاي فـي احتفالية صاخبـة، مطلقيـن هتافات الابتهـاج وصيحـات البنـادق نحـوه، فاسـتقبلهم البـاي بتبـادل الصلـوات مـع مرابطهـم. كان هـؤلاء البـدو يرتفعـون بـ «الباراكانـو» (الـرداء الليبـي التقليـدي) وتغطـي رؤوسـهم قبعـات بيضـاء، متسـلحين ببنـادق ومسدسـات بدائيـة.

وفـي اليـوم التالـي، عبرنـا سـهلاً شاسـعاً يُسـمى »تـورو»، وهـو مـرج أخضـر بديـع يخلـو مـن الأشـجار ويمتـد حتـى السـفوح الجنوبيـة لجبـال غريـان. هـذه الجبـال، التـي تمـد أذرعهـا نحـو السـهول، تحبـس الرطوبـة وتجعـل الأرض تحتهـا بالغـة الخصوبـة، حتـى أننـي أحصيـت أربعـة جـداول مائيـة فـي ثـلاث سـاعات فقـط. ولـو وجـدت هـذه الأرض حكومـة رشـيدة ترعـى زراعتهـا، لغـدت جنـة غنـاء. ومـع اقترابنـا مـن البحـر، وجدنـا آبـاراً قديمـة محفـورة فـي الحجـر الرملـي بعمـق سـحيق، ومياهـاً مالحـة المـذاق، وهـو طعـم اعتـاد عليـه سـكان سـاحل طرابلـس بـل ويفضلونـه.

وعلـى أحـد الجبـال المواجهـة للجنـوب، تلـوح قلعـة قديمـة تحيـط بهـا كـروم العنـب ذات النكهـة الرائعـة، والتـي يمكـن أن تنتـج نبيـذاً فائـق الجـودة لـولا قلـة خبـرة السـكان المحلييـن والتحريـم الدينـي. وعنـد الظهيـرة، ومـع اشـتداد الحـرارة، خيمنـا فـي منطقـة »سـيدي عبـد العاطـي» بيـن التـلال القريبـة مـن البحـر، وذلـك للحصـول علـى المـؤن اللازمـة للجيـش مـن بـدو المنطقـة.

استغل البـاي وقـت فراغـه فـي ممارسـة الصيـد بالصقـور، وهـي هوايته

المفضلـة. ويسـتخدمون نوعـاً مـن الصقـور الجوالـة يسـمونه «الثيـور»،[1] يبذلـون فـي تدريبـه جهداً مضنيـاً، حتـى أن الصقـر البـارع قد يُبـادل بجمـل كامـل. ويبـدو أن المـور هـم مـن نقلـوا هـذا الفن الفروسـي القديـم إلـى إسـبانيا ومنهـا لشـرق أوروبـا، لكنـه لا يزدهـر إلا فـي أفريقيـا لتوافـر شـروطه الثلاثـة: الحصـان الأصيـل، والصقـر المتمـرس، والأرض المنبسـطة.

ومـع حلـول المسـاء، تواصـل توافـد مجموعـات البـدو مـن الجبـال والسـهول، يهبطـون التـلال تحـت راياتهـم وهـم ينشـدون أهازيـج حماسـية يرددهـا الجنـود خلفهـم بصـوت واحـد. ولقـد أدهشـني كيـف ينصـاع هـؤلاء الذيـن يعيشـون فـي قفـار بـلا قوانيـن لأمـر أميرهـم بمجـرد نـداء الحـرب، وقـد بادلهـم البـاي وداً بـود، مظهـراً امتنانـه لولائهـم.

فـي تلـك الليلـة، ذقـت مـرارة البـرد القـارس؛ فقد هبطـت الحـرارة قبيـل الفجـر إلـى مـا يقـارب 4 درجـات مئويـة، بعـد أن كانـت فـي الظـل نهـاراً تصـل لدرجـات مرتفعـة. هـذا التفـاوت الحـاد بيـن هجيـر النهـار وزمهريـر الليـل هـو السـمة الغالبـة علـى سـاحل البربـر؛ حيـث تأتـي الريـاح الشـمالية محملـة برطوبـة البحـر لتغمـر الشـواطئ بالنـدى الكثيـف، حتـى أن الأرض تغطـى أحيانـاً بصقيـع أبيـض يشـبه الثلـج.

وفـي صبيحـة الرابـع عشـر، توجهـت لزيـارة البـاي الرسـمية فوجدتـه

1-الثيور (Thiur): يظهر هنا أن المؤلف قد استخدم كلمة «طيور» العربية (جمع طير) كاسم عَلَم لنوع محدد من الصقور، وهو خلط لغوي يقع فيه الرحالة عند تدوين المسميات المحلية. والمقصود بها هنا هي الصقور الجوالة (Falcons) التي تشتهر بها المرتفعات والبراري الليبية. كانت هذه الصقور تُعد من أغلى الصادرات في العهد القره مانلي؛ حيث كانت تُصاد وتُدرب وتُرسل هدايا دبلوماسية رفيعة المستوى إلى ملوك أوروبا (مثل ملك فرنسا وملك سردينيا) أو تُباع بأسعار باهظة لقناصل الدول الأجنبية في طرابلس. وتُعد هذه الإشارة من ديلا تشيلا توثيقاً لأحد أهم موارد الحياة البرية التي كانت تحظى باهتمام اقتصادي في ذلك الوقت. (المراجع)

يستعد لاستعراض قواته التي تزايدت بقدوم فرق البدو الجديدة. واستأنفنا الرحلة عابرين تلالاً صخرية تتخللها جداول صغيرة وبقاع خلابة تنمو فيها أشجار النخيل والزيتون والكروم في منطقة تُدعى »سيبي».[1] وعلى القمم الجنوبية، تظهر أطلال قلاع موغلة في القدم، وبالقرب من الطريق، تتناثر بقايا أقواس وآبار عميقة مزينة بالرخام الجميل، تشهد على حضارات غابرة سكنت هذه الأرض.

وصلنا إلى مقربة من «لبدة»، حيث كان في استقبالنا ستة من المرابطين الذين رفعوا الرايات ونفخوا في المزامير والقرب احتفاءً بقدوم الباي، وأدوا حوله رقصات بأوضاع وحركات غريبة تعبيراً عن ابتهاجهم. ثم انحدرنا شمالاً من التلال لتتجلى أمامنا أطلال «لبدة العظيمة» (Leptis Magna)، فنصبنا مخيمنا بين أثارها، على بعد نصف ساعة من ساحل البحر.

تقع أطلال المدينة في بقعة جغرافية مميزة؛ حيث يحدها غرباً وجنوباً جبال «مسلاتة» التي ترتفع قممها بشموخ وتتوجها بقايا قلعة قديمة، بينما تمتد شرقاً سهول فسيحة تكسوها غابات النخيل والزيتون. ورغم وعورة الجبال المحيطة ومظهرها الصخري، إلا أنها تفتقر اليوم إلى أي نشاط زراعي أو صناعي، وباتت مهجورة تماماً رغم ملاءمة مناخها وتربتها لزراعة الكروم والزيتون.

لم يتبقَّ من «لبدة العظيمة» سوى أطلال غامضة طمرت الرياح وأمواج البحر أجزاءً كبيرة منها تحت الرمال. ومع ذلك، لا تزال الشواهد تنطق بالفخامة؛ من بقايا مبانٍ شاهقة، وأبراج مهددة، وشوارع مرصوفة، وأعمدة من الجرانيت الأحمر المتساقط، وحطام من أفخر أنواع الرخام والبورفيري.[2] من المعروف أن لبدة بناها الفينيقيون في أزمنة غابرة،

1-منطقة السبيعة(المراجع)

2-الرخام والبورفيري (Porphyry): إشارة إلى النفائس الأثرية التي ميزت المدن الرومانية واليونانية القديمة في ليبيا. والبورفيري حجر صلب نادر يتميز بلونه

وأصبحت في وقت متأخر جداً مستعمرة رومانية. ولا أستطيع أن أحدد، وسط كل هذا الدمار، ما تبقى من لبدة الفينيقية؛ ولكن بالحكم على نوع العمارة المستخدم وزخارف التيجان، أعتقد أن ما تبقى من أطلال بارزة هو من صنع الرومان. ومن المرجح أن هؤلاء الفاتحين، تقديراً لمدينة سارعت بإعلان ولاؤها لهم وظلت مخلصة خلال أحداث تلك الحرب،[1] قد جملوها بنصب تذكارية رائعة، ولم يتركوا إلا القليل مما قد يذكرها باستقلالها القديم.

وفيما يخص الجغرافيا التاريخية، أرى أن ثمة خلطاً كبيراً في تحديد مواقع المدن القديمة على هذا الساحل. فمن الأرجح أن «طرابلس القديمة» هي تلك الآثار الواقعة غرب المدينة الحالية، بينما «طرابلس الجديدة» (أو نيابوليس كما سماها اليونانيون) هي المدينة القائمة اليوم. وأعتقد أن ما ورد عند «بطليموس» و»بليني» يدعم هذا الفصل بين «نيابوليس» و»لبدة العظيمة»، خلافاً لما ذهب إليه بعض النساخ أو الجغرافيين المتأخرين الذين خلطوا بينهما. وعلى أية حال، يظل الجزم في هذه المسائل صعباً في ظل زحف الرمال المتحركة التي تواري الآثار وتخفي معالم التاريخ.

وفي لبدة، التقيت بالكابتن «سميث»، وهو باحث إنجليزي عازم على دراسة هذه الآثار الثمينة. وبما أنه يمتلك من الوسائل والمعرفة ما يفوق قدرتي في هذه الرحلة العابرة، فقد فضلت ترك مهمة التوثيق التفصيلي لآثار المدينة بين يديه الأمينتين.

أمضى الباي يومه في تنظيم القوات، ولما تبين له تأخر قبائل البدو المجاورة عن الالتحاق بالجيش، وجه لقادتهم رسالة شديدة اللهجة يهددهم فيها بنهب خيامهم إذا استمر تأخرهم. وفي المساء، زارني صهر

الأرجواني الداكن، وكان يُطلق عليه (الحجر الإمبراطوري) لارتباط لونه بزي القياصرة. (المراجع)

1-سالوست، حرب يوغرطة. (المؤلف)

البـاي يشـكو صداعـاً حـاداً وأعـراض التهابيـة، فقـررت ضـرورة «فصـد الـدم». ورغـم تـردده فـي البدايـة وتمسكه بالتمائـم، إلا أنـه وافـق بعد حـوار صريـح حذرتـه فيـه من عواقـب إهمـال العـلاج، لكنـه اشـترط شـرطاً غريبـاً؛ وهـو أن يُدفـن دمـه «بشـرف» تحـت خيمتـي، وأشـرف بنفسـه علـى تنفيـذ ذلـك. وفـي اليـوم التالـي، تماثـل للشـفاء، ممـا زاد مـن تقديـره لـي، لكـن ذلـك أثـار حنـق وغيـرة المرابطيـن الذيـن اعتبـروا لجـوء البـاي لـ «مسـيحي» إهانـة لمكانتهـم وضربـة لسـمعتهم كمعالجيـن بالخـوارق.

أيقنـتُ تمامـاً أن وكيـل البـاي، رغـم مـا يبديـه مـن لطـف ظاهـري، يضمـر لـي ضغينـة مكتومـة. ولـم أكـن أجـرؤ علـى الشـكوى منـه للبـاي؛ فإمـا أن ينـال الوكيـل عقابـاً بدنيـاً قاسـياً، أو ينتهـي بـي المطـاف جائعـاً منسـياً. وبينمـا كنـت غارقـاً فـي هواجسـي، زار خيمتـي خـادم لمصطفـى، نجـل رئيـس وزراء الباشـا، محمـلاً بوعـاء مـن الفسـتق والتمـر الممـزوج بدقيـق الشـعير والزبـد، فكانـت تلـك «الفطيـرة» عشـاءً ملكيـاً فـي وقتـه، تقاسـمت فضلتهـا مـع خـدم البـاي الذيـن يحيطـون خيمتـي بـودٍّ كبيـر. وبعد أن أسـكنتُ صرخـات جوعـي وأتممـتُ كتابـة رسـالتي، استسـلمتُ للنـوم بشـجاعة مـن يترقـب تقلبـات الأقـدار.

الرسالة الثالثة: من لبدة إلى مصراتة

غادرنـا «لبـدة» علـى تمـام السـاعة السادسـة يـوم الخامـس عشـر مـن فبرايـر، تحـت مطـر متقطـع وريـاح غربيـة عاتيـة، بينمـا سـجل مقيـاس الحـرارة حوالـي 10 درجـات مئويـة بمقيـاس ريمور (بتحويـل الفهرنهايـت). وبعـد مسـيرة سـاعة ونصـف، اسـتقبلنا السـكان المحليـون يتقدمهـم ثلاثـة مـن الزنـوج يعزفـون علـى المزاميـر، ترحيبـاً بالباي عنـد ضريح أحـد المرابطين. هنـاك، رمانـي المرابـط بنظـرة شـزراء وكلمـات تهديديـة لـم أفهمهـا، حتـى ترجمهـا لـي رجـل أسـود قائـلاً إن المرابـط يتوعـد بـ «أكلـي حيـاً»، وهـي

مجاملـة وحشـية يخصـون بهـا اليهـود أحيانــاً! ورغـم أن وجـود البـاي لجـم حماسـته، إلا أن القلـق سـاورني ونحـن نقتحـم ديـار هـؤلاء المتعصبيـن.

وبعـد ثـلاث سـاعات مـن لبـدة، وصلنـا إلـى »وادي قعـام» ذي القـاع الصوانــي، والــذي ينحـدر مـن التــلال الجنوبيــة. كان الــوادي جافــاً، لكـن مياهــه الراكـدة شـكلت مسـتنقعات يغطيهـا القصـب.

مسـتنقعات لـم تكـن قابلـة للعبـور، وكانـت تغمـر الأراضـي المجـاورة؛ ولهـذا السـبب قـام القرطاجيـون بربـط هـذه الأماكـن بواسـطة جسـر. ولا يبـدو أن كلمـة τείχισμα (تحصيـن) يجـب أن تُفهـم كجـدار، بـل كمجموعـة مـن الأعمـال التـي نُفذت لرفـع هـذا الجسـر. وهـذه الهـوات المسـتنقعية التـي وصفهـا سـترابو بدقـة بــ Βάραθρα، وبطليمـوس بــ إغـراق، لا تـزال حتـى الآن تغمـر مصبـات نهـر «كاينيبـس» (وادي كعـام)، تمامـاً كمـا كانـت فـي زمـن سـترابو، حيـث تفيـض الميـاه علـى الأراضـي المجـاورة أثنـاء الأمطـار.

ولكـن مـا يوضـح هـذا الممـر مـن الجغرافيـا القديمـة بشـكل خـاص هـي بقايـا القواعـد التـي كانـت تسـتند إليهـا أقـواس الجسـر الـذي بنـاه القرطاجيون. ومـن المؤكـد أن ميـاه نهـر «كاينيبـس» كانـت تخـدم سـكان لبـدة؛ إذ يظهـر مـن بقايـا الجسـر امتـداد لآثـار قنـاة مائيـة (قنطـرة) باتجـاه المدينـة، يعلوهـا كل عشـرين خطـوة ركائـز مربعـة مجوفـة بأسـطوانة فـي محورهـا.

وإذا كان هـذا السـيل هـو نهـر «كاينيبـس»، كمـا لا يـدع مجـالاً للشـك، فـإن التـلال التـي ينحـدر منهـا يجـب أن تكـون هـي تلـك المعروفـة بــ «تـلال النعيـم» (τῶν χάριτων) حسـب تسـمية بطليمـوس، وقبلـه بوقـت طويـل هيـرودوت.[1] ولكـن يبـدو أن الجغرافييـن المحدثيـن لـم يعيـروا ذلـك اهتمامـاً، لأننـا نـرى فـي خرائطهـم هـذه التـلال ملاصقـة للسـاحل، بينمـا هـي فـي الواقـع غيـر موجـودة هنـاك. فـإذا كانـت تبعـد 200 غلـوة (stadj) عـن البحـر، كمـا ذكـر هيـرودوت، فيجـب البحـث عنهـا فـي الداخـل

تأمـل معـي جمـال هـذا الريـف؛ إن مـا تـراه عينـاك هـو التجسـيد الحـي

1-هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة 175. (المؤلف)

لما ذكره الأقدمون. وأسمح لي هنا أن أؤكد لك، بناءً على معاينة المواقع، أن ثمة خطأً في نسخ المخطوطات القديمة؛ حيث كُتبت كلمة «مدينة» (πόλις) بدلاً من «نهر» (πόταμος) في نص «سكيلكس». وبناءً على هذا التصحيح الذي تفرضه طبيعة المكان، يتفق «سكيلكس» مع بقية الجغرافيين ومع الحقيقة الميدانية؛ فعند السفر من الشرق إلى الغرب، نجد ريفاً خلاباً يتوسطه نهر «سينيفوس» في موقع منعزل وفريد.

هذا التصحيح لا يعتمد على مقارنة المخطوطات فحسب، بل على المبدأ الذي تعلمته منك: «أن المعاينة الميدانية هي المرجع الأسمى لفهم الجغرافيا القديمة». ويؤكد «هيرودوت» هذا التوافق بقوله إن المنطقة والنهر يحملان الاسم نفسه، واصفاً إياها بأنها كانت من أكثر بقاع ليبيا اكتظاظاً بالسكان، بل ووضعها في مصاف التربة البابلية من حيث الخصوبة؛ حيث كان محصول القمح يبلغ فيها ثلاثة أضعاف المحصول المعتاد.[1]

لا يعود الفضل في هذه الخصوبة المذهلة لجهد السكان، بل لسخاء الطبيعة التي غطت الأرض بغابات النخيل وبساتين الزيتون دون حاجة لعناية. وفي هذه السهول تقع قرى »سليتن» الثلاث الكبيرة، التي يسكنها خليط من اليهود والمرابطين. وبسبب تكاثر المرابطين، امتلأ الريف بزواياهم التي تشبه في تصميمها الكنائس القوطية.

يعيش اليهود في هذه القرى حالة من الاستعباد على يد المرابطين، الذين يسخرونهم كخدم ويبتزونهم مادياً ويعاملونهم بقسوة بالغة.

تقع هذه القرى بعيداً عن الساحل، لأن الشاطئ غير صالح للسكن بسبب الرمال المتحركة التي تثيرها الرياح وتكدسها باستمرار. ورغم كثافة الغطاء النباتي التي توحي بوفرة المياه، إلا أن الينابيع التي ذكرها هيرودوت (1) قد غارت في التربة الرملية، مما يضطر السكان اليوم

1-هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة 175. (المؤلف)

لشرب مياه كدرة وموحلة. وتنتشر في المنطقة بقايا مبانٍ قديمة استخدمها المرابطون لبناء أكواخهم أو اتخذوا من أبراجها الغابرة مساكن لهم.

في السادس عشر من فبراير، واصلنا الرحلة عبر هذه السهول المتنوعة والخصيبة رغم هجرانها. وكان الباي يستغل هذه الرحلة لزيارة زوايا المرابطين، وهي زيارات «تعبدية» تهدف لإرهاب السكان؛ فبينما يصلي الباي، يُجبر الأهالي على تقديم المؤن للجيش، ومن يتخلف يُواجه بحرق منزله ونهب مواشيه والضرب المبرح. وفي الطريق، وردت أنباء عن انسحاب الأخ المتمرد من مدينة بنغازي بمجرد سماعه بقدوم الجيش، مما أشاع جوًا من الفخر والابتهاج في المعسكر.

وعلى بُعد ثماني ساعات من «رأس مصراتة»، تبرز من تحت الرمال أطلال مدينة قديمة يسميها المور »أورير»، وتضم بقايا جدران وأرضيات فسيفسائية ورخاماً، مما يدل على عظمتها الغابرة. ويتطابق موقعها مع صهاريج «كينستانيا» التي وضعها بطليموس بين «رأس تربيرو» و»رأس سيفالوس».[1]

بعد مسيرة ست ساعات، وصلنا إلى تل يطل على قرية »زاوية المحجوب» الخلابة، المحاطة بأشجار الزيتون والنخيل والآبار الوفيرة. قرر الباي التخييم هناك ليدخل مصراتة في اليوم التالي بدخول مهيب. وبالفعل، سارع حاكم المدينة «سيدي محمد آغا» لتقديم فروض الطاعة، ترافقه حاشية من السود والمرابطين والرايات على أنغام المزامير والصنوج.

وفي السابع عشر من فبراير، ومع اقترابنا من مصراتة، عبرنا كثباناً رملية تحجب الرؤية، قبل أن ينفتح المشهد مجدداً على بساتين النخيل والزيتون وحقول الحبوب الشاسعة. تقع مصراتة على بعد ميل من البحر عند الطرف الغربي لـ »رأس سيفالوس»؛ وتمتاز تربتها في هذا الجانب بالرملية القاحلة، حيث تنخفض سلسلة الجبال التي رافقتنا

1-يقصد به (رأس مصراتة) أو (قصر أحمد) (المراجع)

جنوباً تدريجياً حتى تندمج مع التلال الرملية للساحل.

بناءً على هذه المعاينة، يجب تصحيح خريطة «آرو سميث» الشهيرة؛ فهي توحي بوجود سهل متصل وواسع بين رأس مصراتة وسرت الصغرى، بينما الحقيقة أن فرعاً من جبال غريان ينحدر بشدة نحو البحر عند «لبدة»، قاطعاً هذا الامتداد.

يؤكد الواقع الميداني أن .الامتداد حتى رأس مصراتة هو اعتقاد خاطئ. ومع هذا التنبيه، أعتقد أنه يجب فهم نص لسترابو بشكل مختلف تماماً عن المعنى الذي أعطاه له جميع المترجمين؛ فبالحديث عن رأس سيفالو (Capo Cefalo)، يعبر هذا الجغرافي عن نفسه كالتالي :[1]

εἶτ› ἄκρα ὑψηλὴ καὶ ὑλώδης, ἀκρὴ τῆς μεγάλης Σύρτεως»)،

والتي يترجمها الجميع: «ثم (يأتي) الرأس العالي والغابوي، الذي هو بداية السيرت الكبير».[2] إن دقة هذا الجغرافي الشهير يمكن إنقاذها عن طريق إزالة الفاصلة بعد كلمة (ἄκρα) ونقلها إلى ما بعد كلمة (ὑλώδης)، وترجمتها بالتالي: «ثم يأتي الرأس الذي يشكل النهاية العالية والغابوية للسيرت الكبير». وبما أنه يجب ربط كلمة «عالية» ليس بارتفاع الرأس الذي لا يتوافق مع الواقع، بل بالمسافة التي تفصل نهاية السيرت الكبير عن قاعه. بهذا المعنى نفسه، نجد كلمة (ὑψηλή) تُستخدم غالباً من قبل هوميروس للدلالة على خلفيات البحر داخل اليابسة .[3]

1-ملاحظة: تم إدراج الكتاب اليونانيين بنصهم الأصلي، ليس من قبيل التباهي بالمعرفة، ولكن فقط في تلك المرات التي اعتُقد فيها بوجوب عرض نصوصهم بشكل مختلف عن المعتاد لدى المترجمين. (المؤلف)

2-سترابو، الجغرافيا، الكتاب السابع عشر. (المؤلف)

3- أوردتُ النصوص اليونانية الأصلية هنا للضرورة العلمية فقط، لتوضيح أوجه الاختلاف عن الترجمات الشائعة التي لم تنصف دقة الجغرافيين القدماء. (المؤلف)

لا يمكن اعتبار مستوطنة مصراتة مدينة بالمعنى الأوروبي، فهي عبارة عن مساكن متناثرة في مجموعات تفصل بينها الحقول والحدائق. أما البناء فبائس للغاية؛ إذ لا تتجاوز المنازل عشرة أقدام ارتفاعاً، وهي مبنية من الحصى والطين، ومسقوفة بسعف النخيل والقش المطلي بالوحل. وبمجرد هطول الأمطار، يذوب هذا الإسمنت البدائي وتنهار الأسقف فوق رؤوس ساكنيها، مما يجعل الرطوبة سبباً رئيساً في انتشار أمراض العيون والروماتيزم والزحار. ومن الغريب أن هؤلاء السكان، بدافع الهمجية والتمسك بالعادة، لا يستخدمون «الجير» المتوفر بكثرة في تربتهم الكلسية، بل إنهم يعمدون إلى تكسير الأحجار المربعة الجميلة المستخرجة من الأنقاض الأثرية إلى قطع صغيرة قبل بنائها بشكل بدائي.

يعتمد أهل مصراتة في عيشهم على الزراعة، مع وجود صناعات يدوية للسجاد الصوفي الملون الذي يكتسب قيمته من جودة الصوف المحلي.

كانت مصراتة مركزاً لانطلاق القوافل نحو «فزان» والأقاليم الداخلية، محملة بمنتجات أوروبية كالأقمشة القطنية والسجاد، والأهم من ذلك، الحلي الزجاجية الملونة المستوردة من البندقية، والتي تُعد أغلى الحلي لدى سكان «تمبكتو». وتعود هذه القوافل محملة بغبار الذهب والعاج والعبيد.

ومن الملاحظ أن الأوروبيين، وحتى سكان السواحل، لا يستطيعون خوض غمار هذه الرحلات التي تستغرق ستين يوماً تحت الهجير؛ فالسمرة الداكنة للبشرة هي «جواز السفر» الوحيد المعترف به لنيل احترام قبائل الرحل في أعماق القارة، ولن يتمكن العرق الأوروبي أبداً من فرض مكانته في تلك الفيافي الشاسعة.

ورغم أن هذا الطريق هو الأقصر والأكثر ملاءمة للوصول إلى المناطق الداخلية، إلا أن جهل السلطة وتعسف حكام مصراتة أدى إلى

قطع هذه الروابط التجارية التي كانت كفيلة بصناعة ثروات طائلة. وفي هذا الطريق، تتجنب القوافل منطقة «تاورغاء» (التي تبعد مسيرة يوم جنوباً) بسبب أبخرة مستنقعاتها الملوثة، رغم شهرتها بجودة تمورها التي قُدمت للباي كجزية أثناء إقامته.

تُدار مصراتة من قِبل «آغا» يجمع بين يديه السلطات العسكرية والقضائية والتشريعية، في سلطة مطلقة لا تقيدها عدالة أو عرف. وبإمكان الآغا تجنيد 800 فارس ومثلهم من المشاة، لكن هذا العدد لا يعكس الحجم الحقيقي للسكان كما هو الحال في أنظمة التجنيد الأوروبية.

في السابع عشر من الشهر، حلّ الباي وحاشيته ضيوفاً على مقر الآغا، وكانت المأدبة الرسمية عبارة عن دلو كبير من عصيدة الشعير واللحم المتبل بالزبدة، قُدمت على الأرض. وأمضينا ثلاثة أيام وسط عاصفة هوجاء مزقت خيامنا، ورغم أن الآغا عرض عليّ المبيت في منزله، إلا أنني فضلت البقاء في الخيمة المبللة على المبيت تحت سقف يقطر طيناً وأصابني بالدوار.

وفي الثامن عشر، أقام الباي لقاءً رسمياً مع أعيان المدينة وشيوخ القبائل. وجلس الآغا بجانبه، بينما أجلسني الباي عن يمينه تكريماً لي، وبدا فخوراً بوجود أوروبي في حاشيته. وقد منحني هذا التشريف مكانة مرموقة في أعين الجميع، مما دفع أتباعي من السود لاستغلال هذه اللحظة لتعزيز الروابط معي.

سعيتُ إلى اتهام خادم الباي بالغلظة وإساءة معاملتي، وما إن استشعر هذا الوغد أن حياته باتت في خطر، حتى ركض نحو خيمتي مرتمياً عند قدميّ، يتوسل إليّ باكياً طلبًا للغفران. ولأبدد مخاوفه من انتقامي، طمأنته وقدمت له كأساً من «العصير»؛ والآن، بعد أن توفرت المؤن وكثر الطعام، يبدو أنه غير خطته وقرر قتلي بـ «عسر الهضم» من فرط كرمه!

في العشرين من فبراير، ومع تحسن الطقس، استأنفنا المسير نحو بنغازي. انضم إلينا آغا مصراتة على رأس خمسمائة فارس، ومثلهم من الرجال المحمولين على الجمال، وقد حظي الآغا بثقة الباي لدرجة مشاركته في أدق المداولات العسكرية طوال الرحلة.

بعد مسيرة ساعتين، وصلنا إلى طرف »رأس مصراتة»، الذي يبرز في البحر عبر ثلاث نقاط صخرية تفصل بينها خلجان صغيرة، وهو ما يفسر تسمية «بطليموس» له بـ »رأس ترييرو» (أي الرأس ذو الرؤوس الثلاثة). وعند حافته الشرقية، في موقع يُدعى »قصر أحمد»، تشكل الصخور مرسى طبيعياً تلجأ إليه السفن الصغيرة في البحار الهائجة. ويبرز ضريح مرابط فوق الرأس ليكون بمثابة منارة طبيعية تحذر البحارة القادمين من الغرب من مغبة الاقتراب أكثر من اللازم من مداخل «سرت».

من هذا الموقع، يمتد البصر عبر خليج »سرت» الشاسع، حيث تغمر النفس كآبة العزلة في تلك القفار المنخفضة التي تغيب عنها الجبال تماماً. لطالما أثار هذا الخليج الرعب في نفوس البحارة، وامتلأت سجلات التاريخ بكوارث حطام السفن على شواطئه.

وقد اختلف الجغرافيون القدماء في وصفه؛ فبينما ربطه «سيلاريوس» بكلمة يونانية تعني «السحب»، وغفل أن كلمة »سرت» في العربية تعني «الصحراء»، وهو الاسم الذي يطلقه السكان محلياً على قاع الخليج. أما ما ذكره «سترابو» و»بليني» عن المد والجزر العنيف في هذا الخليج، فأنا أرى فيه تفسيراً فيزيائياً مختلفاً؛ فبسبب غياب السلاسل الجبلية جنوباً، تندفع الرياح الشمالية الباردة شتاءً بقوة هائلة نحو قاع الخليج الدافئ، دافعةً مياه البحر الأبيض المتوسط ليفيض بعيداً عن حدوده المعتادة، مسبباً دوامات قاتلة وتلاطماً للأمواج يظنه

البعض مداً وجزراً منتظماً.

كانت شواطئ سرت في الماضي مرتعاً لقبيلة »أولاد علي« المتمردة، الذين استغلوا عزلة المكان لنهب وقتل كل من تضطره الظروف لعبور تلك القفار. ولقد كان من حسن حظ المسافرين أن «سيدي محمد» (الباشا) قد قضى على هذا الجيل من قطاع الطرق، بل إنني رأيت بعيني رأس زعيمهم معلقاً على وتد في قاع الخليج ليكون عبرة لمن اعتبر.

أما الغطاء النباتي هنا، فيعكس قسوة البيئة؛ فالنباتات قصيرة، شائكة، وذات مظهر جاف يتناسب مع التربة الرملية اللافحة. تهيمن عليها الأنواع الخشنة والشفوية وبعض الزنابق، بينما تغيب النباتات الخيمية تماماً. ورغم أنني وجدتُ بعض الأنواع المشابهة لنباتات سواحل «ليغوريا» في إيطاليا، إلا أنني صادفتُ أشكالاً غريبة وخصائص جديدة، آمل أن تُثري مجموعتي العلمية.

بعد مسير خمس ساعات بمحاذاة الشاطئ، وصلنا إلى موقع يُدعى »عرار«، حيث نصبنا خيامنا قرب آبار للمياه المالحة. هذه الآبار محفورة في حجر رملي غني بشظايا الأصداف، وتتسرب المياه من جدرانها بسرعة بمجرد الوصول لعمق مترين لتتجمع في القاع وتصبح صافية. ويبدو أن الحاجة دائماً ما تلهم البشر ذات الحلول، فوسائل الحصول على الماء هنا تشبه تماماً تلك المستخدمة في...

يؤكد «بليني» أن سكان هذه المناطق كانوا قديماً يجدون المياه على عمق بسيط، عازياً ذلك إلى رشح مياه «موريتانيا» التي تتدفق تحت طبقات الرمال الهائلة. ورغم أنني لم أذق قط مياهاً بملوحة هذه الآبار، التي جعلتني أحنّ إلى صفاء مياه «ليغوريا»، إلا أن تقديري يشير إلى أن ملوحتها لا تتجاوز ربع ملوحة مياه البحر.

بقينا في «عرار» حتى الحادي والعشرين من فبراير بانتظار تعزيزات مصراتة. وهناك، التقى الباي بأربعة من أعيان بنغازي

(الشيوخ)، الذين أكدوا له أن بطش أخيه المتمرد جعل قلوب الناس تنفر منه، وهم ينتظرون اقتراب الجيش ليعلنوا ولاءهم. هذا الخبر رفع الروح المعنوية للجنود، وإن كنت أشك في وجود شجاعة حقيقية في قلوبهم.

وفي هذه الأثناء، وصلت هدية ثانية من التمور من أهالي «تاورغاء» (التي تبعد أربع ساعات جنوباً)، وبالقرب منها تقع قرية أخرى تُدعى «واد الفار»، حيث يمثل التمر الغذاء الوحيد القادر على الصمود في هذه القفار.

قبل الرحيل، ملأنا القرب بالمياه المالحة العكرة. وتُصنع هذه القرب من جلود الأغنام حديثة الذبح، حيث تُجفف تحت الشمس وتُرش بمسحوق الفحم. ومن المثير للدهشة أن هؤلاء القوم اكتشفوا الخصائص المطهرة للفحم قبل كيميائيينا؛ فرغم أن الماء يكتسب لوناً أحمراً قانياً ورائحة منفرة، إلا أن العطش الشديد يجعلني أقبل عليه بشغف يضاهي شغفي بالمثلجات في بلادي.

انطلقنا جنوباً في الثاني والعشرين من فبراير، لنجد أنفسنا أمام سلسلة جبال منخفضة تنتهي قرب البحر. الأرض هنا تتكون من رمال ناعمة مختلطة بشظايا الأصداف المتحجرة، خاصة في موقع «ميلفا» المكسو بنباتات شائكة. وقد استرحنا في «سيغامينجيورا»، حيث لاحظت نمو نبتة يسميها البدو »تيميري»، لها درنات لحمية يأكلونها نيئة وطعمها يشبه «السعد الأرضي».

عانينا في ذلك اليوم من تقلبات جوية حادة؛ فبينما كانت الحرارة فجراً 5 درجات مئوية، قفزت ظهراً إلى 19 درجة. وبناءً على نصيحة الباي، استبدلتُ زيي الأوروبي بـ الزي المملوكي، فوجدته مريحاً للغاية ويسمح بحرية الحركة ويقي من الهجير. سرّ الباي بمظهري الجديد، حتى أن المماليك الذين لم يودوني يوماً جاءوا لزيارتي في خيمتي، طمعاً في شرب «الروم» بصحبتي، فقدمت لهم ما أرادوا شرط أن يشربوه في

خيامهم بعيداً عني، رغبةً مني في الراحة وتجنباً للاحتكاك بهم.

في ليلة الثالث والعشرين، هطل ندى كثيف وانخفضت الحرارة إلى قرابة 4 درجات مئوية. سلكنا طريقاً مستنقعياً خطراً في منطقتي «عوينات تاورغاء» و»قرية المشاشدة»، حيث تعثرت الخيول في الوحل وجذور القصب، واضطررنا لسقيها من مياه آسنة ومالحة تفوح منها رائحة النتن.

وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً، نصبنا خيامنا في «مينسلا» وسط جو خانق وحرارة بلغت 23 درجة مئوية. وهنا، ولأول مرة، رأينا »السراب»؛ مشهد زائف لفيضان عظيم يغمر السهول، حيث انعكست صور التلال على سطحه وكأنها مرآة ماء حقيقية. تعالت صيحات الفرح من الجنود ظناً منهم أنهم وصلوا إلى بحيرة، لكن كلما ركضنا نحوها تلاشت كالشبح، مما ضاعف من عذاب العطش الذي ينهكنا. ورغم كل هذا البؤس، لا يزال الجيش يظهر صموداً يثير التساؤل...

بدأت معاناة الدواب تشتد بسبب رداءة المياه، وسرى همسٌ بين الجنود بأننا سنعوض كل هذه الخسائر بمجرد التقاء أول قبيلة من البدو في طريقنا.

في المساء، زارني أحد البدو طالباً «الفصد»، ولما حاول القيام بذلك بنفسه -وفق عوائد قومه- مستخدماً سن قلم، تسبب لنفسه بجرح عميق. تدخلتُ لإجراء العملية بأسلوبي الطبي، مما أكسبني شهرة واسعة؛ إذ تقاطر عليّ الكثيرون مدعين المرض لمجرد فضولهم لرؤية هذه العملية تُجرى بيسر ودون ألم، ولولا حزمي في الرفض لكنت قد فصدت دم الجيش بأكمله. ومن العطش.. شربنا طيناً مالحاً.

غادرنا «الهيشة» في الرابع والعشرين من فبراير، وبعد ساعتين عثرنا على بئر بعمق ستة أمتار، لكن ماءها كان قليلاً، مالحاً، وملوثاً بالقار. تدافع الجميع لسقي الخيول والجمال، وشربنا نحن خليطاً من الماء والطين، ومع ذلك واصلنا السير بمرح مبالغ فيه نكاية بالعطش.

كان البحر ينساب على يسارنا، تحجبه تلال رملية ممتدة، بينما الأرض من تحتنا سبخات ملحية واسعة. لاحظتُ وجود قشور بيضاء كثيفة من ملح البحر تحت الرمال (على عمق 10 سم تقريبًا)، لدرجة أن حوافر الخيل كانت تطقطق فوقها فتتحول الأرض إلى بياض ناصع. هذا المشهد أعاد لذهني وصف «هيرودوت»[1] لتلك الكتل الملحية التي تمتد من طيبة بمصر عبر واحة آمون وصولاً إلى أعمدة هرقل، وما هذه التلال إلا حراس الصحراء الكبرى.

خلافاً للأساطير التي تروى عن وحوش أفريقيا الضخمة، لم أصادف في هذه القفار سوى أفعى صغيرة لا تتجاوز الشبر، لكنها سامة للغاية. أما القرود والثيران البرية والغزلان فكانت غائبة أو هاربة لسرعتها الفائقة.

لكن العدو الحقيقي الذي لم أتوقع مواجهته هو أسراب البراغيث الهائلة التي تخرج من الرمال لتغزو أرجل المسافرين وأكواخهم، محولةً ليلنا إلى جحيم يفوق مشاق النهار. وللبدو حيلة طريفة في مواجهتها؛ إذ ينشرون ملابسهم فوق الرمل الساخن، فتخرج الحشرات مغراة بالحرارة لتجد نفسها مدفونة في ذرات الرمل المتحرك.

هذه الحشود الكثيفة من الأعداء؛ كما لم تكن خيولنا وجميع الجمال أقل عناءً وتورماً جراء لسعات كميات هائلة من القراد التي كانت تلتقطها في طريقها . كانت تلك الحشرات تلسعها بحدة في مواضع كثيرة لدرجة أنها أصبحت حرونة ومتمردة، مما جعل ركوبها أمراً شاقاً.

لقد تسببت رحلة الصيد في خسارتنا لساعتين ثمينتين من المسير. وفي المساء، خيمنا في لوبي [2] على بُعد ساعتين من البحر. إن القوات في حالة سيئة للغاية جراء السفر والحرمان من كل ضروريات الحياة. وحدهم البدو المعتادون على هذه القفار يجدون سلوى في هذا البؤس المشترك، وهم من يشدون أزر القوات ويرفعون معنوياتهم. ولحسن

1-هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة 181. (المؤلف)

الحظ، فإن التعب والنعاس لا يسمحان لي بالاستغراق طويلاً في هذه الخواطر المحزنة.

الرسالة الخامسة تتمة لخليج سرت الكبير: من لوبي إلى إينوفا

إذا وضعت أمامك أفضل الخرائط التي لدينا لأفريقيا، ستجد أنه من الشواطئ الغربية لخليج سرت الكبرى، يشكل البحر، عبر نوع من الشق الطويل في القارة الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال، جيناً يبلغ طوله حوالي خمسين ميلاً وعرضه ما بين ميلين إلى أربعة أميال. في خارطة «دانفيل» يُشار إلى هذا الجين باسم خليج زوكا؛ وفي خارطة «أرو-سميث» يشار إليه بالفعل، ولكنه بلا اسم. لم أنجح في رؤية هذا الجين البحري، ومع ذلك، بما أننا لم نبتعد إلا قليلاً جداً عن الساحل، فلا يبدو لي أنه كان بإمكانه أن يفلت من نظري. ولكي أقنعك بشكل أفضل بشأن هذه النقطة الجغرافية، أرفق لك تقريراً عن رحلة قام بها صديق لي، القبطان لوتييه، تحديداً بهدف استكشاف الشواطئ الشرقية والغربية لسرت الكبرى؛ وعلى الرغم من أنه أبحر بمحاذاة الساحل من جهة الغرب حتى الدرجة °30 '27، أي أبعد بكثير من الموقع المحدد لمدخل هذا الجين، إلا أنه لاحظ أن الخط الساحلي متصل ولا يوجد فيه ما يمكن حتى أن يكون قد أعطى مجالاً للوهم. وعلى أية حال، إذا قمت إذا كنت مخلصاً بشدة لسلطة كبار الجغرافيين الذين ذكرتهم للتو، ولم تستطع التخلي عن فكرة وجود خليج «زوكا»، فإليك الطريقة للتوفيق بين سلطتهم وبين الحقيقة. ابدأ بتذكر أن المنطقة المتاخمة لهذا الجزء من الخليج بأكملها منبسطة، ومرتفعة قليلاً جداً عن مستوى سطح البحر، على الرغم من أن الشاطئ محاط بأكوام من الرمال المتحركة جزئياً، والتي غالباً ما تتحطم بفعل ضربات العواصف. ولا تنسَ أنه خلال فصل الشتاء تندفع المياه نحو الشواطئ الأفريقية، وأن التيارات التي

تستقر من الشمال إلى الجنوب تزيد من مستوى مياه الخليج. حسنًا، أعتقد أنه في هذه الظروف، يقوم البحر، بعد كسر الحواجز الرملية للشاطئ، بالانتشار في السهول المجاورة، ويغمر مساحات واسعة من الأرض. وبناءً على ذلك، فإن البرك الشاسعة من المياه المالحة التي تبدأ بين «أرار» و»سيجمنجيورا»، وما وراء ذلك، رغم انقطاعها المتكرر، تمتد في الشتاء لتشكل بركة طويلة جداً وواسعة، تظل متصلة بالبحر طالما استمر السبب الذي يرفع مستواه. ولكن مع توقف هذا السبب وانقطاع الاتصال، ومن ناحية أخرى، مع تحفيز الحرارة لعملية التبخر، ستحدث انقطاعات أخرى في هذه البرك؛ وسيظل الموقع الذي كانت تشغله المياه مستنقعاً في البداية، ثم بجفافه تماماً عند أطرافه سيترك، كما هو الحال في الملاحات الاصطناعية، ذلك الترسب من الملح البحري الذي رأينا أنه يوجد بكثرة

بجوار هذه المستنقعات. ولا تشكل طبقة الرمل التي تغطيها أي عائق، لأن التربة رملية تماماً؛ وإذا انتبهنا إلى الحرارة التي تكتسبها الرمال وإلى مساميتها، فسنجد فيها أكبر قدرة على تعزيز تبخر المياه المالحة الموجودة تحتها.

لا أستطيع أن أقول لك في الوقت الحالي ما إذا كان الجغرافيان المذكوران آنفاً قد استمدا وجود هذا الجين البحري من القدماء، أم من الرحالة المحدثين. ولكن إذا كان لسلطة «سترابون» دور في ذلك بالصدفة، فيبدو لي أنه لا يختلف على الإطلاق عن التفسير الذي اقترحته: يقول (1):[1] عند دخول سرت الكبرى، وعلى اليد اليمنى بعد «سيفالو» (الرأس)، يوجد مستنقع يبلغ طوله ربما 300 ستاد وعرضه 70 ستاداً، ينتهي في جين، وفيه جزر صغيرة، ومحطة رسو عند مصبه. في هذه الأثناء، لاحظ أنه لكي أحصل على سلطة جغرافي بهذا القدر لصالحي، لم أكتفِ بالترجمة الإيطالية لـ «بوناتشيولي»، ولا بتلك

1-سترابون، الكتاب السادس عشر، الجغرافيا (المؤلف)

المعتمدة في طبعة «ألميجوفين»، حيث يترجم كلاهما كلمة (λίμνη) بكلمة «بحيرة»، بينما المعنى المعتاد لهذه الكلمة، والمثبت هنا من خلال معاينة الأماكن، هو «مستنقع». أما بالنسبة لمحطة الرسو التي كانت تقع على الأرجح عند مدخله، فلا يمكن القول حقاً إنها كانت ميناءً، إذ استخدم «سترابون» كلمة (υφορμον) لتعني «مرفأ رسو» وليس (λιμνη)، وهي الكلمة التي ترجمها «بوناتشيولي» بشكل خاطئ ب رصيف ميناء. وهكذا، خطوة بخطوة وعلى حساب «سترابون»، تم صنع ميناء، ولم يلبث أن جاء من زينه برصيف.

أستأنف رحلتنا التي كانت قصيرة جداً، حيث خيمنا في يوم 25 فبراير، بعد 4 ساعات من المسير، في «مطرون»، حيث يوجد بئر على مسافة ثلاثة أميال من البحر. كانت مياهه تحتوي على التتبيلة المعتادة المحملة جداً بالملح البحري، فضلاً عن كونها متسخة وموحلة. وصلنا في اللحظة التي كان فيها بعض المسلمين في طريق حجهم إلى مكة على وشك إرواء عطشهم. ورأى هؤلاء المساكين البئر يُفرغ من قبل كل هذا الجمع الذي كان يندفع بعضه فوق بعض خوفاً من نفاد الماء، دون أن يتمكنوا من الحصول على رشفة واحدة. ومن المفهوم تماماً أنه لم يتمكن أحد من رجالنا أيضاً من بلّ شفاهه قبل أن يرتوي حاشية الباي وعبيده وخيوله وجماله.

في اليوم التالي، 26 فبراير، وبعد 5 ساعات من المسير، وعلى مسافة ميل ونصف من البحر، أصبح مظهر البلاد أكثر إمتاعاً للعين. كانت هناك مروج جميلة مرصعة بنوع ملفت من نبات الحوذان ذو أزهار كبيرة بيضاء ناصعة، والذي أعتقد أنه الأصل للنوع الذي أدى استزراعه لفترة طويلة عندنا إلى مضاعفة بتلاته، ويسميه علماء النبات (Ranunculus asiaticus). أما ما كان بمثابة أكبر راحة وتعزية لنا، فهو بعض الآبار الغنية بالمياه الجيدة جداً التي وجدناها بالقرب من البحر. كان ذلك كافياً

في صباح السابع والعشرين، وأثناء سيرنا بمحاذاة الشاطئ، عثرنا على ثلاثة أعمدة مربعة شاهقة من الحجر الرملي، تفصل بين كل واحد منها مسيرة ساعة. كانت هذه الأعمدة متآكلة تماماً بفعل الزمن، والنقوش التي تغطي وجوهها الأربعة باتت طلسماً لا يمكن فكه. وبجوار العمود الأول، تلوح بقايا برج ذي قبة في موقع يُعرف بـ »إلبينيا«.

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن «زعفران» هي ذاتها مدينة »أسبي« (Aspis) القديمة التي ذكرها سترابو وبطليموس؛ فخضرتها ومياهه العذبة تجعلها موقعاً مثالياً للاستقرار. وإذا صحت هذه الفرضية، فإن البرج القديم الذي رأيناه ليس سوى »برج الفرات« الذي ذكره سترابو، والذي وضعه البطالمة كعلامة حدودية لمملكتهم بعد استيلائهم على إقليم قورينائية (برقة)، ممدين حدودهم من قاع الخليج وصولاً إلى هذا الموقع.

أما الميناء الأجمل الذي ذكره سترابو قرب «أسبي»، فقد يكون هو ذاته «ميناء إيزا» الذي حدده الكابتن لوتير في ملاحظاته الجغرافية.

أجد في هذا التوافق بين الجغرافيا القديمة والحديثة ما يعزز يقيني بأن تلك الأعمدة المربعة الثلاثة لم تكن مجرد آثار عابرة، بل هي «نقاط حدودية» (Termini) نُقشت لترسم التقسيم التاريخي بين مملكة البطالمة ودولة قرطاج. ومن المثير للاهتمام أننا بعد مسيرة ثلاث ساعات من موقع الأعمدة (إلبينيا)، وطأنا أرضاً تشبه تماماً ما وصفه «سترابو» ببلاد »كاراتشي« (Charax).

كانت هذه المنطقة، بحسب المؤرخين، مركزاً تجارياً حيوياً؛ حيث كان القرطاجيون[1] يقايضون فيها نبيذهم بعصير »السيلفيوم« (Silphium) الثمين، الذي كان يُجلب سراً من قورينا (برقة). وهنا أسمح لنفسي بتصحيح طفيف لنص سترابو اليوناني؛ فبدلاً من القراءة التقليدية «العصير والنبات»، أرى أن الأدق هو «عصير السيليفيوم»، ذلك السائل

1-سترابو، الجغرافيا، الكتاب الثامن عشر. (المؤلف)

الذي كان يُباع بوزن الذهب تحت إشراف الدولة القورينية، وكان مرادفاً للثراء والشهرة في العالم القديم. ولن أسهب في الحديث عن هذا النبات العجيب حتى نطأ أرضه الموعودة في برقة خلال أيام.

بعد مسيرة ثماني ساعات مضنية تحت هجير الشمس، وصلنا إلى »إنيوفا» وخيمنا قرب بئر ماء نقي. وفي ذلك المساء، شرفني الباي بزيارة خيمتي، كنوع من الامتنان لخدماتي الطبية والجراحية التي قدمتها لجيشه. أبدى الباي انبهاراً بأدواتي الجراحية، لكن «مقياس الحرارة» كان بالنسبة له لغزاً عجيباً.

قضيت ساعة كاملة أشرح له كيف يتمدد الزئبق لينبئنا بحرارة بقاع العالم المختلفة. ومن باب المداعبة السياسية المبطنة، حين اكتشفتُ جهله بمدينة «سانت بطرسبرغ»، نصحته بضرورة إبقاء أسطوله بعيداً عن تلك الأصقاع الباردة، كي لا يضطر لتعلم جغرافيتها عبر «درس قارس» من الروس! وغادر الباي خيمتي ليرسل لي هدية شهية: بيضة نعامة، التهمتها بابتهاج قبل أن يغلبني النوم.

الرسالة السادسة: من النيوفية إلى قصر المرادي

استأنفنا الرحلة في الثامن والعشرين من فبراير عبر مستنقعات مالحة شاسعة، تبعنا أحدها لعشر ساعات كاملة وهو في طور الجفاف، حيث تبرز قشور الملح من تحت الرمال كعادتها في هذه الأصقاع.

وبعد تجاوز الحافة الجنوبية لهذه الأهوار، دخلنا منطقة جبلية مكسوة ببعض الخضرة تُدعى »نهيم». هذا الموقع هو موطن قبيلة من البدو ترعى مواشيها بفضل رطوبة التربة. وصلنا إليهم والرياح تعصف بنا، وخيولنا وجمالنا في حالة يُرثى لها من الإنهاك.

استغل الجيش وجود القبيلة ليقوم بعملية «تبديل قسري»؛ حيث أخذوا أفضل خيول وجمال البدو مقابل ترك الهزيل والمتعب من دوابنا.

ومـن المفارقـات العجيبـة أن شـيوخ القبيلـة جـاءوا يشـكرون البـاي علـى «شـرف» زيارتـه وتفريغـه لآبارهـم ومصادرتـه لدوابهـم! ولـم يكتـفِ البـاي بذلـك، بـل طلـب أغنامهـم ونعاجهـم ليسـتخدم حليبهـا كقـوت للجيـش طالمـا نحـن مقيمـون عندهـم.

قضينـا يوميـن فـي «إفسـاد» ضيافـة هـؤلاء البـدو الكـرام، ثـم انطلقنـا فـي الثانـي مـن مـارس شـرقاً لمسـافة سـبع سـاعات عبـر تضاريـس رمليـة مخضـرة. وجدنـا هنـاك كميـات هائلـة مـن الكمـأ، يشـبه فـي شـكله كمـأ «بيدمونـت» الإيطالـي، لكنـه للأسـف عديـم الطعـم والقيمـة. كمـا كثـرت الأرانـب البريـة التـي تسـلى جنـود البـاي باصطيادهـا.

خيمنـا فـي مرتفـع يُدعـى »قـارة الصخيـرات»، وفـي اليـوم التالـي اضطررنـا للالتفـاف جنوبـاً لتجنـب بحيـرة مالحـة هائلـة تمتـد حتـى حـدود «يهـودا».[1] كانـت تبـرز مـن وسـط مياههـا أكـوام رملية تبـدو كجـزر صغيرة، ولـم يظهـر لهـا أي اتصـال مباشـر بالبحـر، ممـا يوحـي بأنهـا تشـكلت بفعـل تراكـم ميـاه الأمطـار والرشـح فـي المنخفضـات الرمليـة.

بيـن منعطفـات هـذه التـلال التـي يغمرهـا أحيانـاً مظهـر خصـب بفضـل الرطوبـة، تظهـر طبقـات مـن حجـر »السـيلينيت» (Selenite) ذي البنيـة الصفائحيـة اللامعـة. وأعتقـد أن مسـحوق الكبريـت الـذي لاحظـه الكابتـن لوتيـر يطفـو علـى ميـاه باطـن الخليـج ينتمـي إلـى هـذا التكويـن الجبسـي

1-يُقصد بـ «سكجا» (بالإيطالية: Sceggia) منطقة «الصخيرات» الواقعة غرب مدينة سرت، وهو وصف أطلقه المؤلف بناءً على طبيعة الأرض الصخرية المرتفعة. أما «يهودا» (أو Iuda)، فهي ليست يهودا فلسطين، بل هي موقع «اليهودية» (المعروف حالياً بـ الزويتينة قرب أجدابيا)؛ وهي منطقة عُرفت في الخرائط الكلاسيكية باسم «يوديكيوم» (Iudicium) نسبةً إلى مستوطنات قديمة، وكانت تُمثل تاريخياً النقطة الحدودية الفاصلة بين إقليمي سرت وبرقة. وتشير المصادر التاريخية (مثل كتابات سترابو وبطليموس) إلى أن هذه المسافة تمثل الامتداد الجغرافي لـ «خليج سرت الكبير» حيث تنتهي السباخ القاحلة وتبدأ تخوم إقليم قورينا. (المراجع)

(التكوين الثالث). ورغم أنني لم أغامر بدخول مناجم الكبريت المدفونة تحت الرمال، إلا أنني علمت أن السفن تأتي خصيصاً لتحميل هذه التربة الكبريتية لاستخدامها في علاج الأمراض الجلدية للإبل.

إن وجود الملح الخام (الملح الصخري) في هذه الأصقاع يعيدنا إلى أوصاف «أبو التاريخ» هيرودوت [1]؛ الذي ذكر وجود مناجم ملح بحري بيضاء وحمراء على سفوح جبال الأطلس، لدرجة أن السكان كانوا يبنون بيوتهم من قوالب الملح بدلاً من الحجارة. ويبدو أن المواقع التي حددها قديماً لا تبعد كثيراً عن منطقة »زوارة» (غرب طرابلس) التي لا تزال تُستخرج منها طبقات الملح الواسعة حتى يومنا هذا.

يهتدي المسافرون في هذه المتاهات بأكوام من الحجارة وضعها حجاج مكة؛ حيث يضيف كل عابر حجراً جديداً لضمان عدم اندمارها تحت الرمال. الأرض هنا مجوفة بالكامل بفعل جحور الأرانب وفئران »الجربوع» (Jerboa) ذات الذيول المزينة بخصلات سوداء، والتي تسببت جحورها في إصابة العديد من خيولنا بالعرج.

وفي غمرة الحرارة الحارقة، غطى سماءنا سرب هائل من الجراد كأنه غيمة سوداء، وكان يبدو وكأنه يحتفل بزفافه في الجو نظراً لحركته المتلاحمة. لم يجد رفاقي من المرابطين والبدو والزنوج غضاضة في اعتبار هذا السرب مائدة سماوية؛ فجمعوا الجراد وشووه على النار أو خزنوه في الملح الأبيض المتوفر بكثرة في الرمال، تماماً كما فعل أسلافهم «النسامونيون» الذين ذكرهم هيرودوت[2]. واستخدموا لإشعال النار نباتاً أبيض زغبياً (يُرجح أنه نوع من الشيح) يشتعل بمجرد ملامسة شرارة الفولاذ.

قطعنا ثماني ساعات من «سكجا» لنصل إلى »يهودا» قرب البحر، حيث عثرنا على عشرة آبار مياه عذبة وأطلال بيوت قديمة شاهدة

1-هيرودوت، التاريخ، الكتاب الرابع. (المؤلف)
2- هيرودوت، المرجع نفسه، ص 172. (المؤلف)

علـى حضـارة بائـدة. وفـي الرابـع مـن مـارس، توقفنـا فـي »ماهيريغـا« بسبب الإنهـاك والحـرارة، ثـم واصلنـا فـي الخامـس من مـارس عبـر أرض صخريـة جـرداء لنصـل بعـد تسـع سـاعات مـن «الجـري» المرهـق إلـى »جيريـا«.[1]

كانـت «جيريـا» أرضـاً صخريـة صلبـة لدرجـة استعصى معهـا نصـب الخيـام، والأدهـى مـن ذلـك هـو انعـدام المـاء تمامـاً. لقـد نفـد مخزوننـا فـي وقـت كنـا فيـه بأمـسّ الحاجـة إليـه تحـت شـمس لا ترحـم. ومـن العجيـب أن نـرى «عقيـدة الاستسـلام للقـدر» لـدى هـؤلاء المسـلمين تمنحهـم بـروداً غريبـاً تجـاه هـذه المخاطـر؛ فهـي ليسـت شـجاعة بقـدر مـا هـي انغمـاس كلـي فـي اللحظـة الراهنـة دون أدنـى تفكيـر فـي عواقـب الغـد.

وصلنـا أخيـراً إلـى الحـدود الشـرقية لولايـة طرابلـس، وعلـى أعتـاب الدخـول إلـى «بنغـازي»، ثـار المعسـكر بهتافـات مدويـة: »بارود.. بـارود!«. كان الجنـود يطالبـون بالذخيـرة لإطـلاق النـار احتفـالاً بنهايـة هـذه الرحلـة الشـاقة، فـي مشـهد عبثـي يختصـر كل المصاعـب التـي واجهناهـا بالضجيـج والاحتفـال.

بمجـرد وصولنـا إلـى أرض منبسـطة علـى بُعـد ميـل مـن البحـر، تحـول المسـير إلـى سـاحة عـرض عسـكري مهيـب اسـتعداداً للمعركـة. اصطـف فرسـان البـدو فـي جناحيـن عـن يميـن البـاي ويسـاره، وبـدأوا اسـتعراضاً حربيـاً مذهـلاً عُـرف بــ »لعبـة البـارود«؛ حيـث ينطلـق الفرسـان في سـباقات

1-سكجا: منطقة «السكت» الحالية بضواحي مدينة الخمس، كانت تعد نقطة ارتكاز للقوافل والمسافرين في إقليم طرابلس./ يهودا: «وادي يهودا» الواقع شرق منطقة تاورغاء، وهو موقع أثري عُرف بآباره العذبة وأطلاله الرومانية القديمة التي كانت محطة توقف رئيسية./ ماهيريغا: منطقة «المغارقة» (Maghriqa) شرقي مدينة سرت، وهي من المحطات التاريخية المعروفة في المسالك الصحراوية الرابطة بين طرابلس وبرقة.
جيريا: يُرجح أنها «القريّة» أو منطقة «بونجيم»، وتشتهر بتضاريسها الصخرية الوعرة وجفاف مناخها، مما جعلها من أصعب مراحل الرحلة قديماً. (المراجع)

محمومـة، يطلقـون نيـران بنادقهـم وسـط صيحـات جنونيـة، ثـم يسـتديرون فـي حـركات التفافيـة خاطفـة. لكـن هـذا الحمـاس المفـرط سـرعان مـا تحـول إلـى فوضـى دمويـة؛ إذ اصطدمـت الخيـول ببعضهـا، وسـقط الفرسـان تحـت حوافـر الركائـب الضخمـة، ممـا اضطـر البـاي للتدخـل شـخصياً لتهدئـة هـذه «النفـوس المتعطشـة للحـرب» قبـل أن تفنـى القـوة فـي عـرضٍ احتفالـي!

واصلنـا المسـير لتسـع سـاعات إضافيـة حتـى وصلنـا إلـى »مهينـال»، حيـث نصبنـا خيامنـا قـرب آبـار مالحـة. هنـا، بـدأ ملامـح الطريـق تتغيـر؛ فواجهنـا رمـالاً حمـراء ناعمـة ومتحركـة، وفـي السـابع مـن مـارس، أصبحـت الكثبـان عاليـة لدرجـة سـدت طريقنـا، ممـا اضطرنـا لتسـلق تلـك «التـلال الملتهبـة» لتجنـب ميـاه البحـر التـي تغلغلـت فـي المنخفضـات. كانـت لحظـات عصيبـة؛ فلـو هبـت ريـح «السـيروكو» الجنوبيـة حينهـا، لدفنـت الجيـش بأكملـه تحـت أمـواج الرمـال التـي لا تقـل غـدراً عـن أمـواج البحـر.

وصلنـا أخيـراً إلـى أقصـى نقطـة جنوبيـة فـي الخليـج (عنـد خـط عـرض 30° 7‹). ومـن هنـا، بـدأ مسـارنا ينعطـف نحـو الشـمال الشـرقي. وأسـتطيع الآن أن أجـزم، بنـاءً علـى المعاينـة الميدانيـة، بـأن »خليـج زوكـا» الطويـل المرسـوم فـي خريطـة «دانفيـل» لا وجـود لـه؛ إنمـا هـو مجـرد بـرك مالحـة تفصلهـا الرمـال عـن البحـر. كمـا أننـي لـم ألمـح أي أثـر لسلسـلة جبـال تربـط «الأطلـس» بجبـال برقـة، ممـا يؤكـد أن هـذا المنخفـض الرملـي يتصـل مباشـرة بصحـراء «شـرا» (الصحـراء الكبـرى).

وهنـا يبـرز خطـأ «بلينـي» الـذي رسـم نهـراً صغيـراً يدعـى «تريتـون» يصـب فـي قـاع الخليـج؛ فالحقيقـة التـي أراهـا أمامـي هـي رمـال لا تنتهـي، ولا أثـر لأي نهـر، وهـو مـا يتماشـى مـع صمـت «سـترابو» وروايـة «سالوسـت» [1] عـن النـزاع الحـدودي القديـم بيـن القرطاجييـن والقورينييـن فـي هـذا القـاع الجـاف.

هـذه الطبيعـة القاسـية تذكرنـي بأسـطورة قبيلـة »بسـيلي» (Psylli) التـي

1-هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة 173. (المؤلف)

رواهـا هيـرودوت؛[1] أولئـك القـوم الذيـن جفـت مياههـم، فثـاروا وحملـوا السـلاح لمهاجمـة «الريـح الجنوبيـة» فـي عقـر دارهـا! وعندمـا وصلـوا إلـى هذا القـاع الرملـي، هبـت عليهـم الريـاح بإعصـار رملـي دفنهـم جميعـاً. ويبـدو لـي أن الحقيقـة الكامنـة وراء هـذه الأسـطورة هـي محاولـة هجـرة جماعيـة نحـو الجنـوب (ربمـا باتجـاه فزان) انتهـت بكارثـة طبيعيـة فـي هـذا الـوادي الـذي يمثـل امتـداداً طبيعيـاً للصحـراء الكبـرى.

أعتقـد جازمًـا أن أقصـى امتـداد لخليـج سـرت جنوبًـا يتجـاوز بكثيـر مـا هـو مرسـوم فـي أفضـل خرائطنـا الحاليـة، وأرى أن رصـدًا ميدانيًـا أدق سـيؤيد هـذا الاسـتنتاج. فالبحـر هنـا يتغلغـل فـي القـارة بعمـق لـم يدركـه الكابتـن «لوتيـر» فـي رحلتـه البحريـة.

وعنـد هـذا الحـد الخارجـي للخليـج، تقـع مواقـع جغرافيـة وتاريخيـة هامـة؛ منهـا قلعـة «أوتومـالا» التـي لـم أجـد لهـا أثـرًا، و»مذابـح فيلينـي» (Arae Philaenorum). وتخليـدًا لذكـرى الأخويـن القرطاجييـن «فيلينـي» اللذيـن ضحيـا بحياتهمـا ودُفنـا أحيـاءً لترسـيم حـدود وطنهمـا ضـد توسـع القورينييـن، يخبرنـا «بلينـي» أن تلـك المذابـح كانـت مصنوعـة مـن الرمـل. وهـل هنـاك نصـب تـذكاري أشـد رصانـة وخلـودًا لهمـا مـن أكـوام الرمـال التـي احتضنـت جسـديهما؟

فـي الثامـن مـن مـارس، انعطفنـا شـمالاً وغربـاً، وانتهـت أخيـراً معانـاة الرمـال المتحركـة عنـد وصولنـا إلـى «هين-أغـان». وواصلنـا المسير لسـت سـاعات عبـر تضاريـس جبليـة وعرة حتـى وصلنا إلـى »موراتـي» (Murat).

الرسالة السابعة. من مورات إلى الأبيار.

تعتبـر «مـورات» وجهـة مقدسـة للحجـاج والقوافـل؛ فهـي المكـان الأول الـذي يمنحهـم المـاء النقـي العـذب بعـد جفـاف سـرت القاتـل، حيـث تُجمـع

1-سالوست، حرب يوغرطة. (المؤلف)

المياه من آبار محفورة في الحجر الجيري الصلب. ومن هنا ينقسم الطريق: أحدهما ساحلي نحو بنغازي، والآخر جبلي يتوغل نحو «المدن الخمس» (Pentapolis) وصولاً إلى درنة.

هذه الجبال هي موطن القبائل العربية التي تعيش حياة أبوية، لكن جشع السلطة في طرابلس حول تقليد «برنوسو» (الولاء) إلى ضريبة ثقيلة تُقدر بعُشر ممتلكات القبيلة. والقبيلة التي تعجز عن الدفع تُجبر على مرافقة جيش الباي بكامل عدتها ونسائها وأطفالها ومواشيها، وهو ما ضمن للباي ولاء هذه القبائل ومنعها من الانضمام للمتمردين.

غادرنا «مورات» في التاسع من مارس، وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى »كاسار أدوتشني»؛ وهي أطلال قلعة دائرية ضخمة محاطة بخندق محفور في الصخر، ويؤدي إليها طريق مرصوف يعبر الخندق فوق قوس حجري. رأيت هناك أحجاراً منقوشة بأحرف مجهولة لم يسعفني الوقت لنسخها.

وفي اليوم التالي، ونحن في طريقنا إلى »برشيشامرا»،[1] مررنا بقلعتين أخريين، وظلت آثار المباني القديمة ترافقنا لسبع ساعات متواصلة. خيمنا في «برشيشامرا» فوق أنقاض مدينة غابرة، حيث تشهد الطرق المرصوفة والأحجار المربعة الضخمة والآبار المحفورة في الصخر على عظمة حضارات سكنت هذه الأرض التي نراها اليوم صحراء غير مزروعة، رغم خصوبتها الكامنة.

في الثاني عشر من مارس، وبينما كنا نتجه شمالاً، تغير المشهد فجأة وكأننا في عالم آخر:

سهل شاسع أخضر تفترشه المروج، تزدحم فيه خيام البدو،

1-برشيشامرا: (Berchiscjamra) هي منطقة «بئر الحشم» أو «بئر جشام»، وتقع في المنطقة الفاصلة بين سرت وبنغازي. عُرفت قديماً بكونها مورداً مائياً حيوياً ومنطقة سبخات ملحية، وهي جزء من التضاريس الساحلية الوعرة التي تميز خليج سرت (السدرة). (المراجع)

وتمـرح فـي أرجائـه قطعـان الماشـية. ومـن جهـة الشـرق، تحرسـه سلسـلة جبـال طويلـة ترتفـع تدريجيـاً مـن حافـة السـهل وتمتـد نحـو الجنـوب.

هـذا التحـول الجمالـي المفاجـئ يبشـر بدخولنـا قلـب «برقـة» الخصيـب، حيـث بـدأت ملامـح الجغرافيـا تبتسـم لنـا بعـد طـول عبـوس.

تـراءت لـي حافـة تلـك الهضبـة الشـامخة التـي ترتفـع نحـو 500 متـر فـوق سـطح البحـر، والممتـدة مـن »رأس راس سـم» (نتـوء فيكـوس القديـم) وصـولاً إلـى خليـج بومبـا. إننـا نقف الآن في قلـب منطقة »قورينـا» (شـحات)، تلـك الأرض التـي سـحرت القدمـاء حتـى اعتقـدوا أن »حدائـق الهسـبيريدس» الأسـطورية قـد غُرسـت فـي تربتهـا الخصبـة. وبفضـل رطوبـة هـذه الجبـال، تزدهـر سـهول »إريـكاب» التـي افترشـت أمامنـا كبسـاط أخضـر لا ينتهـي.

بينمـا كنـت أصعـد أحـد التـلال شـرق «إريـكاب»، ذهلـت بمشـهد معمـاري فريـد؛ بيـوت ضخمـة ليسـت مبنيـة، بـل منحوتـة بالكامـل فـي جـوف الجبـل ككتلـة واحـدة بواسـطة الإزميـل. ذكرتنـي هـذه العمـارة بصعيـد مصـر، لكـن النقـوش التـي وجدتهـا علـى أحجارهـا لـم تكـن هيروغليفيـة، بـل كانـت حروفـاً لأبجديـة مجهولـة تمامـاً، ممـا يوحـي بـأن أمـة غابـرة سـكنت هـذه السـواحل وكان لهـا لغتهـا وهويتهـا الخاصـة، وربمـا كانـت هـي مـن ألهمـت المصرييـن هـذا الفـن أو اسـتلهمته منهـم.

فـي منتصـف مـارس، واصلنـا المسـير نحـو »لابيـار» (الأبيـار)، يرافقنـا موكـب مهيـب مـن قبائـل البـدو الذيـن عجـزوا عـن دفـع الجزيـة، فأُجبـروا علـى مرافقـة الجيـش بنسـائهم وأطفالهـم ومواشـيهم. كان المنظـر يشـبه هجـرات الشـعوب الكبـرى التـي قرأنـا عنهـا فـي كتـب التاريـخ. وبفضـل خصوبـة أرض «لابيـار»، وجـد هـذا الجمـع الغفيـر مـا يكفيـه مـن قـوت ومرعـى.

تعتبر »لابيار» موقعاً يفوق الخيال بجماله، وتشتهر بآبارها العميقة المحفورة في الصخر، والتي يتطلب استخراج مائها العذب حبالاً يزيد طولها عن 30 متراً. وتكتسي الجبال هنا بلون أخضر داكن بفعل أشجار »العرعر الفينيقي»، وهي ذاتها شجرة »الثويا» التي ذكرها «بليني»[1] ووصفها بأنها درة قورينائية، ويُقال إن الساحرة «سيرس» كانت تحرق خشبها لتعطير غرفها في أساطير هوميروس.

غمرني هواء الجبال النقي بهدوء وسكينة، ولم أستغرب تعلق القبائل العربية بهذه الأرض وحفاظهم على عاداتهم الأبوية وسط هذا السحر الطبيعي. ورغبة منه في استعراض قوته قبل الوصول لمركز التمرد، قرر الباي افتتاح «بلاط» عسكري في لابيار؛ حيث جاب منادون سود يقرعون الطبول الضخمة بين الخيام، يدعون شيوخ القبائل لزيارة المقر، مع التحذير المعتاد: »من يتخلف، فرأسه هو الثمن».

سارع الجميع للتلبية، وبدأ المشهد يتحول من حملة عسكرية إلى تجمهر سياسي كبير يجمع بين سطوة السلاح وبساطة الرعاة.

أزالوا خيامهم بسرعة وساروا من جميع تلك التلال إلى المعسكر، حيث كان يُسمح لهم يوميًا بمقابلة الباي مطولًا، ورافقوه في أسفاره، ملازمين له بإخلاص. طوال ذلك الوقت، كان يُظهر نفسه بمهابةٍ عظيمةٍ أبهرت عقول هؤلاء البسطاء، وألهمهم، ليس فقط هؤلاء الزعماء، بل جميع القبائل المجاورة، الذين كانوا يذهبون يوميًا إلى المعسكر لمشاهدة مشهدٍ جديدٍ تمامًا بالنسبة لهم. كان رأسه ملفوفًا بعمامةٍ كبيرةٍ مصنوعةٍ من أجود الشالات في بلاد فارس؛ وكان يرتدي برنوسو قرمزيًا جميلًا، وهو ثوبٌ داخليٌّ من الديباج المنسوج بالذهب ذي خلفيةٍ زرقاء سماوية، وسروالًا من التافتا بلون الورد، وحذاءً أحمر؛ وكان كل شيءٍ مزينًا

1-بليني، التاريخ الطبيعي، الكتاب 13. (المؤلف)

بشـرابـاتٍ ذهبيـةٍ، وحبـالٍ ذهبيـةٍ، وتطريـزٍ ذهبـيٍّ، وكانـت الشـرابات الكبيـرة التـي تتدلـى مـن أطـراف كل جـزءٍ مـن ملابسـه ذهبيـة. أظهـر حاشـيته بأكملها نفـس المهابـة، وكان المنظـر مهيبًـا ورائعًـا لدرجـة أنـه أبهرنـي. وكانـت العـروض والمبـارزات وغيرهـا مـن أشـكال الشـجار بمثابـة الترفيـه اليومـي، إذا سـمح الطقـس بذلـك. وكانـت رائعـة ومذهلـة حقًـا؛ وذلـك لمـا تميـزت بـه ملابـس الرجـال والخيـول مـن فخامـة، وللفخامـة التـي كانـت تُقـام بهـا.

عندمـا أُخليـت الخيـام لهـذه الاحتفـالات، تقـدم حـرس الجمـال، برتبـة ضابـط، حامـلاً فأسًـا. وإلـى جانبـه، كان آغـا تركـي، محاطًـا بالأعـلام، يحمـل عصـا القيـادة؛ ثـم شـاوس، ممسـكًا بعصـا رعويـة، وأخيـرًا البـاي، ممتطيًـا حصانًـا أبيـض فخمًـا مزينًـا بأبهـى الزخـارف، ومحاطًـا بالفرقـة الموسـيقية (النوبـة) مـع فرقـة مـن الفرسـان والمشـاة، يجـرون معهـم موكبًـا مـن المدافـع. واختتمـت الموكـب مجموعـة ضخمـة مـن الجمـال. أثنـاء المقابـلات، كان يجلـس، أو بالأحـرى، يسـتلقي بشـكل غيـر منظـم، علـى أريكـة مخمليـة حمـراء مزينـة بالذهـب، موضوعـة فـي مؤخـرة خيمتـه. وحولـه، جالسـين علـى سـجادة، وقفـوا فـي دائـرة علـى اليميـن واليسـار، أولًا أقاربـه وقـادة الجيـش، ثـم قـادة البـدو. خلـف هـؤلاء وقفـت أولاً دائـرة مـن المماليـك، ثـم صـف آخـر مـن السـود، وأخيـراً ثلـث مـن الشـويين المسـلحين بالبنـادق، الذيـن كانـوا يحملونهـا تحـت أذرعهـم، وأفواههـم متجهـة نحـو الأرض. كانـت الأحـكام التـي ينطـق بهـا البـاي تُنفـذ أمـام عينيـه بعنـف شـديد، دون أي طعـن؛ وكان يُـرى أحيانـاً وهـو يضيـف بضـع ضربـات أخـرى بيـده إلـى العـدد الـذي نطـق بـه أولاً.

لـم يكـن فـي هـذا الجهـاز مـا لا يليـق ببـلاط باشـا طرابلـس. لكـن فـي المسـائل التـي كانـت تُناقـش فـي هـذا النـوع مـن مجالـس الدولـة، كان كل شـيء يتخـذ شـكل فوضـى عارمـة. كان البـدو يقاطعـون البـاي باسـتمرار ويعارضونـه، وكان رجـال حاشـيته يقاطعـون رجـال الحاشـية ويعارضونهـم، وسـرعان مـا كان المماليـك والزنـوج يتدخلـون، وينتهـي بهـم الأمـر جميعًـا

بالتحدث في وقت واحد، مطلقين صرخات مرعبة ومحدثين ضجيجًا هائلاً لدرجة أنني شعرت بالرعب في المرة الأولى التي سمعتهم فيها. كنت أسأل أحيانًا عن سبب مواجهة الباي لكل هذه الصعوبات في قراراته، وما هو موضوع هذه المناقشات الصاخبة. لم يكن أحد يعلم، وكانوا يجيبون بأنهم يتجادلون.

عشتُ هنا بين هؤلاء الناس، الذين ما زالوا يحافظون على عادات أقدم العصور البشرية، واستمتعتُ كثيرًا بصحبتهم، لأفهم طبيعتهم وعاداتهم. في المرة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى خيامهم، هربت جميع النساء والأطفال؛ ولكن، بعد أن طمأنني دليلي، بدأوا يقتربون واحدًا تلو الآخر، وتزايد عددهم حتى وجدتُ نفسي وسطهم. وربما كنتُ أول رجل غير بدوي تراه هؤلاء النساء. بعد أن تأملن ملابسي الأوروبية وضحكن من أعماق قلوبهن، بدا أن إعجابهن كله قد انصبّ على اللون الذهبي للأزرار، وبعد ذلك بوقت قصير، بدأتُ أشعر بسحبي من الخلف. شجعت جرأة الأولى الأخريات، حتى انقضّن عليّ جميعًا، وكادت ملابسي أن تتمزق في كل اتجاه لولا وصول بعض من قومهن، الذين رأوني في بلاط الباي، فأوقفوهن. غادرتُ وقليل من أزرار بدلتي مفقودة؛ ومع ذلك، بقينا أصدقاء حميمين، وعبّرن عن رغبتهن في رؤيتي مرة أخرى بأبلغ ما استطعن.

في صباح اليوم التالي، توافدوا إلى خيمتي بأعداد غفيرة أيقظتني ضجيجهم. لم أصدق حينها صحة رواياتهم. ولكن بعد أن علموا أنني طبيب، وربما لأن مهنة الطب ما زالت تحتفظ بسمعة أسكليبيوس في عصره، جاؤوا وهم على ثقة تامة بشفائهم من جميع أمراضهم. لا شيء أشدّ وقاحة من هذه السمعة لطبيب لا يريد أن يُنظر إليه كدجال أو مُجرم. لم يطلبوا علاجات لأمراضهم فحسب، بل أيضًا لما يخشون الإصابة به. كان سؤالهم جميعًا عن علاج يحميهم من تقلبات العين. هذه مشكلة شائعة بينهم، بسبب الرطوبة العالية التي يتعرضون لها باستمرار

فـي حياتهـم شـبه المكشـوفة، أو فـي خيامهـم غيـر المحميـة جيـدًا. يعانـي الكثيـرون مـن أطـراف مصابـة بنواسـير مزمنـة، نتيجـة إهمالهـم لجروحهـم.

لا أعـرف كيـف تمكـن هـذا الأمـر مـن الانتشـار حتـى بيـن هـذه المجتمعـات، التـي تـكاد تكـون معزولـة عـن التواصـل مـع الشـعوب الأخـرى. مـرضٌ ينتشـر عـادةً فـي المـدن، ويتفشـى عبـر الفجـور؛ ومـن المؤكـد أنـه قـد تفشـى بينهـم لدرجـة أن الكثيريـن يحملـون آثـارًا بشـعة علـى وجوههـم. حتـى الأطفـال والفتيـان الذيـن لـم يطلهـم اللحيـة، يُصابـون بقـرحٍ نتيجـة إهمالهـم مع المصابيـن، وإذا لـم يُعالجـوا جيـدًا، فقـد يُصبحـون مميتيـن. بعـض العلاجـات الناجحـة أكسـبتني شـهرةً واسـعةً بيـن هـذه القبائـل، حتـى أنهـم عندمـا كنـتُ أظهـر فـي خيامهـم، كانـوا يتجمعـون حولـي، حريصيـن علـى التعبيـر عـن محبتهـم لـي قـدر اسـتطاعتهم. أجلسَـتني النسـاء بجانبهـن: فهـذه ألطـف طريقـة يُمكـن للمـرء أن يُعامـل بهـا غريبًـا؛ وبينمـا كنـتُ أتنـاول كـوب الحليـب الـذي قدّمنـه لـي، كـنّ يُـرددن بعـض أغانيهـن، يتمنيـن فيهـا لضيفهـن كل أنـواع السـعادة. أصـرّ العديـد مـن قادتهـم علـى بقائـي معهـم: فبالإضافـة إلـى تقديـم قطيـع مـن الجمـال وكل مـا يلـزم للانضمـام إلـى البـدو، قدّمـوا لـي أيضًـا نسـاءهم. وكنـتُ أظنّهـم أقـلّ سـخاءً فـي هـذا الشـأن، لكـنّ كرمهـم بلـغ حـدًّا جعـل الرجـال، حالمـا وطـأت قدمـاي خيامهـم، ينسـحبون باحتـرام إن وُجـدت نسـاء، تاركيـن لـي حريـة البقـاء معهـم. صحيـحٌ أنّ القبـح والنظافـة المحيطـة بهـم تحرسـهم باسـتمرار. فهـم يعيشـون فـي كـوخٍ مُزيّـنٍ بغطـاء رأس.

تتزيـن النسـاء فـي هـذه القبائـل بحلـي وأدوات زينـة تعكـس نمطـاً بدائيـاً ضاربـاً فـي القـدم؛ فثيابهـن مربوطـة بالجسـم بواسـطة حـزام، ورؤوسـهن ملفوفـة بمناديـل صوفيـة سـوداء تشـبه العمامـة، تتدلـى منهـا ضفائـر عديـدة فـوق الجبيـن مرصعـة بالخـرز الزجاجـي. أمـا الثريـات منهـن، فيرتديـن قلائـد فضيـة فـي أذرعهـن وأقدامهـن، وتتدلـى مـن آذانهـن أربـع خواتـم كبيـرة. ولا أعلـم إن كانـت تلـك القلائـد فـي أقدامهـن مـا زالـت تحمـل ذات المعنـى الـذي

ذكـره هيـرودوت،[1] بحيـث يشـير عددهـا إلـى عـدد مغامراتهـن الشـجاعة، لكننـي علـى الأقل لـم أرَ ذلـك العـدد يـزداد رغـم طـول بقـاء الجنـود بينهـم.

الرجـال والنسـاء علـى حـد سـواء يطبعـون وشـوماً سـوداء دائمـة علـى الأطـراف والذقـون بزخـارف عربيـة غريبـة، وتصبـغ النسـاء أظافرهـن باللـون الأصفـر بعصيـر نبـات (Lasonia inermis/الحنـاء). وكعـادة نبـلاء البربـري، يصبغـن جفونهـن السـفلية بمسـحوق الأنتيمـون (الكحـل)، كمـا يرتديـن هـن والصبيـان خواتـم ذهبيـة مرصعـة باللؤلـؤ فـي الأنـوف، ممـا يبـرز بيـاض أسـنانهن الناصـع علـى بشـرتهن السـمراء، وهـن يمتـزن بنحافـة القـوام وحيويـة الحركـة.

أمـا مهنـة النسـاء الأساسـية فهـي الغـزل والنسـج باسـتخدام أنـوال بدائيـة لـم يتغيـر تصميمهـا منـذ قـرون، ورغـم بسـاطة النسـيج الـذي يبـدو كالحصيـر، إلا أن جـودة الصـوف تجعـل القمـاش ناعمـاً وفخمـاً. وطريقـة غزلهـن للصـوف تتسـم بالغرابـة؛ إذ يجلسـن علـى الأرض ويضعـن الصـوف تحـت أقدامهـن، ويمـررن الخيـوط بيـن أصابـع الأرجـل لشـدها وتجعيدهـا قبـل لفهـا علـى المغـزل.

يقضـي الرجـال معظـم أوقاتهـم فـي خمـول تـام، مسـتلقين فـي خيامهـم يمضغـون التبـغ الممـزوج بقطـع مـن «النطـرون» (كربونـات الصـودا) الـذي يجلبونـه مـن فـزان والداخـل الأفريقـي. وقـد أشـار الكيميائـي «كلابـروث» إلـى أن هـذا الملـح يدعـم الجهـاز العصبـي وينشـطه فـي المناخـات الحـارة،[2] ويبـدو أن جميـع ممضغـي التبـغ هنـا لا يسـتطيعون الاسـتغناء عـن هـذه التوابـل القويـة.

ورغـم وفـرة الصيـد فـي جبـال برقـة، إلا أنهـم لا يمارسـون مـن أنواعـه إلا مـا يـدرّ ربحـاً، وتحديـداً صيـد النعـام. يطـارد البـدوي هـذا الطائـر العمـلاق علـى ظهـر حصانـه فـي الصحـاري، معتمـداً علـى تتبـع الريـش المتسـاقط.

1-هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة 176. (المؤلف)
2-مجلة المعهد الملكي، المجلد الأول. (المؤلف)

وإذا ما دخلت النعامة غابة لتختبئ، يتربص بها الصياد عند مدخلها، لعلمه أنها ستخرج من نفس المكان. وبعد قتلها، يربطها بحصانه ويجرها لساعات، لاعتقادهم الراسخ أن «دهن النعام» يكتسب خصائص طبية عجيبة خلال عملية الجر هذه. ثم يُنقل الجلد والريش إلى بنغازي ليشكل مادة تجارية أساسية.

أكثر ما يثير النفور في هؤلاء القوم هو القذارة المتراكمة على أجسادهم وأثاثهم؛ وعندما سألتهم يوماً عند البئر لماذا لا يغتسلون، أجابوا بذكاء بدوي ساخر: «لو فعلنا ذلك، لما استطاعت قطعاننا اللحاق بنا!» (بمعنى أن الرائحة والقذارة هي ما يجعل الماشية تألفهم وتتبعهم). وحتى فريضة الاغتسال في دينهم، يتهربون منها باستبدال الماء بالرمل (التيمم)، قائلين إن المهم هو النية لا المادة المستخدمة.

وسط هذه الأجواء الموحشة، شعرت بفرحة غامرة بوصول السيد «جياكومو روسوني»، شقيق نائب القنصل الإنجليزي في بنغازي، يرافقه قبطان مالطي، في مهمة لشراء الثيران لتموين جزيرة مالطا. لقد كان لقاء هذين الأوروبيين في هذا القفر بمثابة العثور على واحة في قلب الصحراء، فاحتفيت بهما فرحاً قبل أن أتعرف عليهما حتى.

كان لقائي بهذين الأوروبيين وسط تلك الوحشية كلقاء أعز الأصدقاء وأقدمهم، وشعرت أن الود كان متبادلاً، فقد كنا جميعاً بعيدين عن أي مظهر من مظاهر الحضارة في هذا القفر. أما الباي، فقد شاركنا هذا الاحتفال بطريقته الخاصة؛ إذ كان واثقاً أن أموال هؤلاء التجار ستنتهي في خزائنه عاجلاً أم آجلاً، فأرسل إلينا الشاي والقهوة مع عبارته المعهودة في «المجاملة»: «ليستمتع هؤلاء المسيحيون الثلاثة، الذين يشبهون الكلاب، بمشروبهم معاً».

بينما كنا نستمتع بهذا المتنفس الجميل، وصلت أنباء قلبت الموازين؛ فالمتمرد، شقيق الباي، بدأ يفقد أنصاره أمام القوة التي أُرسلت لملاحقته، وبات يفكر في الفرار من درنة واللجوء إلى قريبه باشا مصر في

القاهرة. وضع هذا النبأ الباي في حيرة، فحرارة الصيف الوشيكة وشح المياه لا يسمحان بالتقدم أكثر، فتقرر البقاء في الجبال حتى تُجمع «زكاة العشور» من كافة القبائل، وقضاء فصل الصيف في »غرنا» (قورينا القديمة)، لكونها مدينة غنية بالمياه وموقعاً استراتيجياً يتوسط القبائل.

قورينا القديمة، التي تفيض بالمياه، وهي موقع مركزي للقبائل العربية الأخرى التي ترعى في المناطق الجبلية للمدن الخمس (بنتابوليس). وسرعان ما دبت الحركة في المعسكر بأكمله للاستعداد للرحيل في اليوم التالي. سأوافيكم في مناسبة أخرى بتفاصيل رحلتنا عبر العاصمة الشهيرة لإقليم قورينا.

الرسالة التاسعة من الأبيار إلى ضريح سيدي محمد الأميري.

لا أستطيع أن أصف لك الفرحة التي تملكتني عندما رأيتهم، عند شروق يوم جميل من أيام 21 أبريل، يجمعون الخيام للتوجه نحو مدينة ذاع صيتها عند القدماء. بدا لي أن شيئاً من الهيبة ينبعث من هذه التلال، التي تتوجه جميعاً أشجار العرعر الفينيقي الكثيفة، والتي كنا نشق طريقنا من خلالها، مما أيقظ في نفسي أفكاراً حية جداً عن العصور الغابرة. وعند نزولنا منها، بعد 4 ساعات من المسير، وجدنا أنفسنا في مساحة من السهل المروجي، محاطة بالكامل بمنحدرات عالية، يحييها الخضار الداكن لشجيرات كثيفة تقطعها بشكل يبعث على الروعة. وعلى أحد التلال التي تبرز عند طرف هذا المرج، ترتفع أطلال عظيمة لقلعة قديمة تسمى الآن «البنية» (Elbenìa). شكلها مربع، وطول ضلعها 58 خطوة. وتظهر بعض الأحجار الموجودة في جهة الواجهة أنها كانت محفورة بحروف ليست يونانية ولا لاتينية بالتأكيد، لكنها كانت متقطعة ومتضررة جداً لدرجة أنني لم أرَ من المناسب تدوينها.

تحيط بالقلعة مقابر عديدة منحوتة في الصخر الحي، حيث تسكن

أسراب الحمام البري وطائر الحجل (ألشاتا)، بينما يتنقل البدو بقطعانهم في الوديان المجاورة المفتونين بخصوبة المراعي.

كلما توغلنا نحو قورينا، ازداد المشهد المعماري فخامة وإثارة للدهشة:

في »زاردز» (بعد 7 ساعات من إلبينيا): بدأت تظهر الدعامات الضخمة المنحوتة من صلب الجبل لتكون أساسات للمباني.

في »سير» (بعد 11 ساعة من زاردز): أبهرني عدد الغرف والخلايا المنحوتة داخل كتلة جبلية واحدة.

في »سلانتا»: رأيت ما يقارب مائتي قبر أو غرفة منحوتة جنباً إلى جنب في جوف الجبل في مساحة ضيقة.

ما يثير الإعجاب حقاً هو أن هذا النحت لم يتم في حجر رملي سهل التفتت كبقية المناطق، بل في حجر جيري صلب يمتلك متانة الرخام، يميل لونه للصفرة ويتحول إلى الأحمر الجذاب بفعل الهواء والزمن. في هذا الصخر الصلد، تجلت براعة وقوة السكان القدماء الذين لم يبنوا بيوتهم فوق الأرض، بل نحتوا وجودهم ومقابرهم في قلب الجبل نفسه.

في هذا الشارع يقع ضريح المرابط الشهير، سيدي محمد إميري، الذي ذاع صيته بفضل معجزاته.و في الخامس والعشرين من الشهر، احتشد الجيش بأكمله هناك بخشوعٍ عظيم، وغطت جدران الضريح بقرابينهم. كانت هناك سلالٌ من التمور الفاخرة، والفستق، وجرارٌ من السمن، بالإضافة إلى سروج الخيل، والبنادق، والشالات، والركائب القديمة. ضحّى الباي هناك بثورٍ في موكبٍ مهيب، ورشّ دمه على الضريح، ووزّع اللحم المشوي على حاشيته، باستثنائي، إذ لم أكن، لكوني كافرًا، جديرًا بالمشاركة في هذه المناسبة.

كنتُ فضوليًا لأرى أثر القرابين التي وضعها الجنود على ضريح هذا المرابط. لذا، عند الغسق، ارتديتُ زيًّا مملوكيًا، واختلطتُ بحشد

المصلّين، ودخلتُ إلى الحرم المقدس. لم أرَ، منذ أن عشتُ بين هؤلاء الناس، مائدةً مُعدّةً بمثل هذا الجمال. كانت ثمار هذه الأراضي الخصبة الشهية مُجمّعةً حول ضريح الولي. ومن بين الأشياء الكثيرة التي أثارت شهيتي، لم أستطع أن أُزيح نظري عن سلة صغيرة من التمر، كانت أجمل ما رأيتُ في حياتي. كان ما لديّ من مؤن ذلك اليوم قليلًا، وبين الجوع والشراهة، مددتُ يدي، في دهشةٍ، إلى السلة، التي فرغت في لمح البصر. في اليوم التالي، امتلأ الحقل بالمعجزة التي صنعها الرجل الميت، الذي تقبّل قرابين المُصلّين، ولم يكن هناك نقصٌ في من زعموا أنهم سمعوه يمضغ.

لا شك أن المنطقة المحيطة بهذا الضريح كانت مكتظة بالسكان في العصور القديمة، إذ لا يزال بإمكان المرء أن يجوب لساعات فوق أطلال مدينة قديمة مدمرة. كما أن حالة الهجر التي تسودها لا تحجب خصوبة التربة عن ناظري المسافر. تنمو أشجار الزيتون وتتكاثر بغزارة حتى أنها تغطي مساحات شاسعة. أما البدو، الذين لا يعرفون سوى الزبدة كتوابل، فلا يكتفون بتجاهل هذه الشجرة، بل يمنعون، بدافع من الخرافات، أي شخص آخر من قطف ثمارها واستخراج الزيت منها، الذي لو جُلب إلى أوروبا عبر بنغازي، لكفى لإثراء هذه المناطق. وتتخلل أشجار الزيتون أشجار تين عملاقة، وأشجار خروب، وأشجار فستق، وأشجار إجاص بري، ويوحي المظهر العام للمنطقة، المتروكة لطبيعتها، بخصوبة تفوق حتى أكثر الأراضي زراعةً في بلادنا.

كثيراً ما كنتُ أُذهل بخصوبة هذه الأراضي، وبنقاء هوائها المعتدل، ووسط آثارٍ كثيرةٍ تُخلّد ازدهار سكان برقة القدماء. لم أستطع أن أفهم كيف، خاصةً في ذلك الوقت الذي اتجهت فيه الجيوش الأوروبية، مدفوعةً بحماسة الغزو الديني، إلى هذه المناطق، لم تُفكّر أي قوةٍ في إنشاء مستعمرةٍ هنا، أو ترسيخ وجودها على أرض برقة الخصبة. لقد كانت سياسات الأمم العظيمة التي سيطرت تباعاً على سواحل البحر

الأبيض المتوسط مُختلفةً تماماً: الفينيقيون، والقرطاجيون، ثم الإغريق، ومؤخراً الرومان، جميعهم اتبعوا مبدأً ثابتاً يتمثل في نقل فائض سكانهم إلى نقاطٍ مُختلفةٍ على هذا الساحل الشاسع، بحيث وجدوا في رحلاتهم، أينما رست سفينتهم، لغتهم وعاداتهم ودينهم وذريتهم.

الآن، يرتجف البحار الإيطالي، الذي يضطر غالبًا لعبور البحر الأبيض المتوسط، عند كل شراع يصادفه، غير متأكدٍ إن كان ودودًا أم همجيًا؛ ومع كل ريح تهب من الشمال، يخشى أن يُدفع إلى هذه الأراضي القاحلة، حيث ربما يلقى حتفه في عبودية قاسية. وما هي العقبات التي دفعت الحكومات إلى رفض هذه المهمة؟ ربما عدد أو قوة السكان المحليين؟ هؤلاء المتشردون، الذين لا يُرعبون إلا الحجاج الحفاة الذين يصادفونهم في الصحراء، والذين يملؤهم الرعب في قلوب حفنة من الرجال غير المنضبطين والمضللين، ويُجبرون على اتباعهم كقطعانٍ من الحمقى؟ إن السكان الذين يُقال إنهم يتدفقون من الداخل غير موجودين، لأن المنطقة الصالحة للسكن التي تمتد جنوبًا من برقة ضيقة وغير مأهولة. إن خليج سرت الكبير، والصحراء الكبرى المتصلة به، حدودٌ حصّنتها الطبيعة، ولن تتجاوز أبدًا في قوتها السكان الموجودين غربًا على الساحل الأفريقي.

على الجانب المصري، صحاري شاسعة وأودية يسهل تحصينها عند مدخل هضبة كاتاباتموس. أما على الجانب البحري، فكل شيء تقريبًا معزول، باستثناء ميناءي تايوني وأبولونيا، اللذين يمكن تحصينهما بسهولة. في ظل هذا الأمان، ما أروع أن تزدهر مستعمرة أوروبية بسرعة لو اتخذت من هذه الأرض المباركة مقرًا لها، حيث يكفي المراعي والصيد وحدهما في البداية لتوفير قوت المستوطنين الجدد!

حاشا لله أن أكون قد قصدت في خطتي هذه أن تُعيد المستعمرة الأوروبية التي ستستوطن هنا، ضد هؤلاء الرعاة، مشاهد العنف الدامية التي لطالما لطخت اللقاءات الأولى مع الشعوب الأجنبية. بل

علـى العكـس، أرى أن حفاظهـم علـى عاداتهـم الحاليـة مرتبـطٌ ارتباطًـا وثيقًـا بازدهـار المسـتعمرة الجديـدة، وبفـرع التجـارة والصناعـة الـذي سـتُطبّق فيـه. أود، وطبيعـة الموقـع تسـمح بذلـك، ألا يُـزرع هنـا أي فـرع زراعـي آخـر غيـر الزيتـون والعنـب والنخيـل. ستغطي هـذه النباتـات التـلال الكلسـية التـي ترتفـع عليهـا هـذه المنطقـة، والمواقـع الرمليـة علـى سـاحلها. وسـتظل السـهول الجميلـة الممتـدة بيـن هـذه التـلال مسـرحًا لرعـي هـذه القبائـل الرحّالـة، الذيـن، بثباتهـم علـى عاداتهـم، بـل ورؤيتهـم إنتـاج مواشـيهم يـزداد بشـكلٍ ملحـوظ، سيصبحون أوفـى حلفـاء المسـتوطنين الجـدد. وكانـت أغنـام برقـة مـن بيـن أثمـن الأغنـام لـدى القدمـاء، ولا أتـردد فـي التأكيـد علـى أن جـودة الأغنـام المنتجـة اليـوم تفـوق بكثيـر تلـك التـي يُزعـم أنهـا الأجـود بيننـا. ويُهـدر هـذا المنتـج إلـى حـد كبيـر اليـوم بسـبب نقـص التصنيـع المحلـي والتجـارة مـع الأجانـب.

مـا الفائـدة إذن مـن تجنـب إزعـاج السـكان الأصلييـن، بـل واحتـرام عاداتهـم وتقاليدهـم دينيـاً؟ ولا شـك أن الاختـلاط الطويـل مـع الشـعوب المتحضـرة، وفـوق كل ذلـك التأثيـر الإلهـي لديـنٍ لطالمـا صقـل أكثـر الأمـم تخلفـاً التـي وصـل إليهـا، مـن خـلال ترويـض هـذه النفـوس الريفيـة المتحفظـة، مـن شـأنه أن يهيئهـم تدريجيـاً لأوثـق العلاقـات الاجتماعيـة. ولا أعتقـد أنـه ينبغـي لـي هنـا أن أقـدم مثـالاً علـى دمـجٍ وحشـيّ لمسـتعمرة متحضـرة مـع شـعبٍ همجـي. لا يبـدو أنـه قـد أُولـيَ الاهتمـام الكافـي للبنيـة السياسـية للشـعوب التـي سـكنت هـذه المناطـق فـي العصـور القديمـة، علـى الرغـم مـن كثـرة مـا كُتـب عـن ازدهارهـا وثروتهـا.

الرسالة العاشرة ([1])

بالقـرب مـن هـذا الموقـع، وفـي شـق مـن منحـدرات الحجـر الجيـري

1-هنا نقص بمقدار صفحتين من الاصل وفيهم بداية الرسالة العاشرة(المراجع)

التي تشكل هذه الجبال، تفجر نبع آخر من المياه العذبة قرب أطلال قديمة؛ وكانت هذه الينابيع هي الأولى التي أراها تتدفق بحرية على الأرض الأفريقية. وقد أكد هذا اكتشافي لما ذكره هيرودوت وغيره من القدماء حول وفرة مياه قورينا.و العجيب أن الباي، الذي لم يعرف في حياته سوى مياه الآبار، سخر من تقريري وأنكر إمكانية خروج الماء من الأرض تلقائياً، بل وتمادى في وصفي بالكاذب الذي يختلق قصصاً خيالية.

وفي هذه الجبال، لفتت نظري نبتة يأكل البدو أوراقها الكأسية، وهي تشبه الخرشوف تماماً في شكلها وطعمها. وقد أقبل جنودنا عليها بنهم شديد حتى أبادوا كل ما وقعت عليه أيديهم منها، لدرجة أن خادمي التهم النبتة الوحيدة التي استطعت الاحتفاظ بها كعينة علمية بمجرد خروجي من الخيمة!

عندما خيمنا في «السبخة»، واجهنا كارثة حقيقية؛ إذ بدأ الموت يحصد جمالنا بمعدلات مخيفة. وبينما انشغل المرابطون بوعودهم السحرية وتعليق التمائم حول أعناق الإبل، أدركتُ بخبرتي الطبية أنها تموت مسمومة. والسبب نبتة من الفصيلة الخيمية (Umbelliferae) تملأ تلك البراري؛ لها أوراق لامعة وريقات مسننة، وثمار مسطحة محاطة بغشاء حريري لامع.

هذا الاكتشاف دفعني للتساؤل: هل هذه النبتة هي »السيلفيوم« (Silphium) الشهير؟ ذلك النبات الذي جعل قورينا تُلقب بـ «سيلفيفيرا» (حاملة السيلفيوم) ودرّ عليها أرباحاً طائلة. لقد كان القورينيون، منذ عهد مؤسسهم «باتوس»، ينقشون صورة هذه النبتة على عملاتهم المعدنية كرمز لثروتهم الوطنية.

أضع بين أيديكم إحدى هذه العملات النادرة؛ يظهر على أحد وجهيها نبات السيلفيوم مع نقش (KOINON)، وعلى الوجه الآخر رأس جوبيتر آمون. ورغم أن النقش قد لا يوضح كل السمات، إلا أنه يؤكد

انتماء النبات للفصيلة الخيمية، بسيقانها المخططة ونوراتها التي تشبه الكرة عند تفتحها.

تتطابق أوصاف «ثيوفراستوس» تماماً مع العينة التي وجدتها؛ فهو يتحدث عن جذر كبير لحمي وجذع يشبه «الفيرولا» في سماكته، وأوراق يطلق عليها اسم (μαςπετον)، وهي تسمية غامضة لم يفهم معناها حتى كبار علماء النبات مثل «ستاكهاوس». كما أكد ثيوفراستوس[1] أن السيلفيوم يعطي نوعين من العصير: عصير الجذع وعصير الجذر، والأخير هو الأكثر قيمة، وهو ما عناه سترابو بمصطلح (ὀπιςθέν) أي العصير المستخلص مباشرة من الجذر.

أما عن فوائدها الطبية، فقد سجل «بليني» قائمة طويلة من العجائب، ورغم مبالغاته، إلا أن الحقيقة التاريخية تؤكد أن هذه النبتة لم تكن عديمة القيمة؛ فمن يستطيع أن يصدق أن نبتة تافهة كان يُدفع ثمنها وزناً بوزن من الفضة؟ بل إن يوليوس قيصر نفسه لم يجد غضاضة في استهلاك مخزون الدولة من السيلفيوم لتمويل حروبه، مما يدل على قيمتها التي تضاهي المعادن النفيسة.

من الخطأ حقاً ألا يُدرك البعض أهمية هذا النبات، فقد كانت كمياته تُخزن جنباً إلى جنب مع الذهب والفضة في خزائن الدولة[2] . ورغم أنني أعلم أن السيلفيوم كاد يختفي تماماً من أرض قورينائية بعد غارات البرابرة[3] ، ويُحكى أنه لم يُعثر إلا على نبتة واحدة في عهد «نيرون» أُرسلت إليه كأثر نادر، إلا أن اللبس الحقيقي لم يأتِ من ندرة النبات فحسب، بل من جهل المترجمين والمفسرين بعلم النبات.

لقد تلاعب هؤلاء بالأسماء؛ فمنهم من أسماه «بلسماً»، ومنهم من خلط بينه وبين «الليزربيزيو»، وحتى رأي «سبرينجل» الذي يرى أنه

1-ثيوفراستوس، تاريخ النبات، الكتاب السادس. (المؤلف)
2-كاليم، هيم. إيرود؛ سترابو، الكتاب 17. (المؤلف)
3-سترابو، الجغرافيا، الكتاب 18 (المؤلف)

نبـات »الفيـرو لا تينجيتانـا» (Ferula tingitana) لا يبـدو مقنعـاً لـي. فالفيـرو لا تينجيتانـا تختفـي تمامـاً قبـل الوصـول إلـى جبـال برقـة، بينمـا تؤكـد حقائـق التاريـخ والجغرافيـا أن برقـة هـي الموطـن الحصـري والوحيـد للسـيلفيوم الـذي لا يطيـق الانتقـال إلـى تربـة أخـرى.

إن الآثـار المميتـة التـي أحدثتهـا هـذه النبتـة فـي جمالنـا فـي مـروج «سـباغي» تتطابـق مـع مـا ذكـره «بلينـي»[1] عـن تأثيـر السـيلفيوم الـذي يُميـت الأغنـام ويصيـب الماعـز بالعطـس. وحقيقـة أننـي لـم أجـد فـي قلـب منطقـة السـيلفيوم التاريخيـة سـوى هـذا النبـات الخيمـي المتميـز، تدفعنـي للاعتقـاد جازمـاً بأنـه هـو »السـيلفيوم القورينـي» الـذي أبحـث عنـه.

لحسـن الحـظ، لـم أكـن بحاجـة إلـى كل هـذه المعرفـة العلميـة لإقنـاع البـاي بـأن الوسـيلة الوحيـدة المتبقيـة لإنقـاذ مـا تبقـى مـن جمـال الجيـش هـي الانتقـال للرعـي فـي مواقـع أخـرى لا ينبـت فيها هـذا النبـات القاتل. تـم تجهيز كل شـيء لرحيـل عاجـل، وفـي اليـوم التالـي وصلنا إلـى «سـلوق» (Slughe)، حيـث أقمنـا المعسـكرات بالقـرب مـن نبعيـن للميـاه العذبـة. توقفـت الوفيـات بيـن الجمـال، ولـم أعـد أرى فـي هـذه المـروج ذلـك السـيلفيوم المفتـرض. كان نبعـا المـاء، رغـم أنهمـا ليسـا غزيريـن جداً، موضـوع إعجـاب مسـتمر مـن قبـل البـاي. إن رطوبـة التربـة فـي هـذه المناطـق الجبليـة ودرجـة الحـرارة المرتفعـة نوعـاً مـا، مـن خـلال تحفيـز الغطـاء النباتـي، جعلـت هـذه المـروج مبهجـة للغايـة، لـذا تقـرر تثبيـت خيامنـا هنـا بشـكل دائـم.

الرسالة الحادية عشرة.من سلوق إلى قورينا (شحات).

لـو لـم أكـن قـد سـمعت بــ «قورينـا» قـط، لكانـت أطـلال هـذه العاصمـة القديمـة المهيبـة قـد سـاقتني حتمـاً إلـى موقعهـا؛ إذ كانـت تلـك الأطـلال تـزداد مهابـة فـي تحديـد معالـم الطريـق كلمـا اقتربـتُ منهـا. ثـلاث سـاعات فقـط مـن

1-بليني، الكتاب 18، الفقرة 111. (المؤلف)

الطريق كانت تفصل خيامنا عن هذه المدينة. ولكن خلال هذه الساعات الثلاث، يتجدد لدى كل بدوي نلتقي به اليقين بأنه سيتعرض للاغتيال. لم أعد أطيق الانتظار في مكاني، وتكرم الباي بتوفير الحماية لي، سامحاً لي بدفع أجر «شاويشين» لمرافقتي إلى قورينا. من الآن فصاعداً، لا تتوقع سوى حطام مبانٍ قديمة، وقلاع مدمرة، وتوابيت وقبور محفورة في الصخر الحي؛ فهذا هو الديكور المعتاد للطرق المؤدية إلى قورينا. إن هذا العدد الكبير من القلاع المنتشرة فوق هذه التلال قد أثار في نفسي الشك حول ما إذا كانت في الحقيقة مساكن لأفراد أثرياء وذوي نفوذ، أم أنها شُيدت للدفاع عن البلاد؛ أو أخيراً، وبما أننا نتحدث عن أرياف يسكنها ويرتادها «الرحل»، فربما كان الجزء المتمدن من الأمة.

لم تكن تفصلنا عن قورينا، العاصمة القديمة، سوى ثلاث ساعات من السفر، لكنها ثلاث ساعات محفوفة بمخاطر «الاغتيال» مع كل بدوي نلتقيه في الطريق. وافق الباي مشكوراً على حمايتي، وسمح لي بدفع أجر اثنين من «الشواس» لمرافقتي. وكان الطريق مهيباً؛ يكتظ بالقلاع المدمرة والتوابيت والمقابر المنحوتة في الصخر الحي. تساءلتُ: هل كانت هذه القلاع منازل للأثرياء أم حصوناً دفاعية لجأ إليها الجزء المتحضر من الأمة للاحتماء من تقلبات العلاقة مع البدو؟

على بُعد ساعة واحدة من قورينا، انفتح أمامنا مشهد ساحر؛ منخفضات جبلية مغطاة بميل كامل من المباني المهيبة والمقابر المحفورة. كانت بساتين »الدفلى» (Nerium oleander L.) تزهو بأزهارها البديعة بين تلك الأطلال، ويطلق عليها البدو اسم »صفصاف»، وهو الاسم الذي يحمله الموقع أيضاً.

ومن وسط هذه الآثار، برز معلم هندسي مذهل: خزان ضخم أو قناة مائية تمتد من الشرق باتجاه قورينا. هذه القناة، التي بُنيت ببراعة فائقة، نُصفها محفور في الصخر الحي ونصفها الآخر يرتفع فوق الأرض على شكل أقواس معمارية، شاهدةً على عظمة هندسية كانت

تغـذي تلـك المدينـة الأسـطورية بالمـاء والحيـاة.

بنيـت هـذه القنـاة العظيمـة مـن أحجـار مربعـة الشـكل رُصفـت فـي صفـوف متوازيـة، وقـد هالنـي اكتشـاف أن كل حجـر منهـا يحمـل مـن الداخـل حرفـاً مـن أبجديـة مجهولـة، لتشـكل هـذه الأحـرف خطوطـاً نصيـة تتكـرر في كل صـف. حاولـت جاهدًا نسـخها، فتسـللت إلـى داخـل القنـاة، لكـن الضـوء الخافـت والمـاء الراكـد والوضعيـة المرهقـة لجسـدي داخـل هـذا النفـق الضيق ثبطـت عزيمتـي. ومـع ذلـك، أؤمـن أن هـذه النقـوش وثائـق رسـمية لشـعوب اسـتوطنت المنطقـة قبـل اليونانييـن، وهـي الدليـل الوحيـد الـذي يحررنـا مـن الانحيـاز المفـرط للمؤرخيـن اليونانييـن الذيـن نسـبوا كل مظاهـر الحضـارة فـي قورينائيـة لأصولهـم ولأحفـاد مسـتعمرة «ثيـرا».

مـن بيـن هـذه الآثـار العديـد مـن الأحـواض والقنـوات، التـي ربمـا كانـت جميعهـا تُغـذى مـن تلـك القنـاة المائيـة الضخمـة. علـى الجانـب الغربـي، لا تـزال جـدران معبـد مربـع صغيـر قائمـة، ومدخلـه المزيـن بأعمـدة نصـف مخـددة ذات تيجـان كورنثيـة لا يـزال سـليماً. ويـزدان الجملـون بنقـش بـارز لملائكـة صغـار يحملـون كرمـة عنـب، ويحيـط بالمعبـد آثـار سـور عـالٍ.

بعـد أن تركـتُ أطـلال هـذه المدينــة القديمـة، وواصلـتُ صعـود هـذه التــلال، وصلــتُ إلــى قمــة الجبـل، علــى ارتفــاع 500 متـر تقريبًـا فـوق ميـاه البحـر الأبيـض المتوسـط. لا يـزال المشـهد الـذي انكشـف أمامـي يثيـر خيالـي؛ فقمـم هـذه الجبـال مسـطحة، وعلـى مدّ البصـر، تنتشـر الأنقـاض فـي كل مـكان. الأرض مغطـاة ببقايـا الأبـراج والأسـوار، مـع امتـدادات طويلـة مـن الشـوارع تصطـف علـى جانبيهـا المقابـر والتوابيـت. أمـا شـجيرات السـرو الكثيفـة التـي تنمـو فـوق المقابـر، فتُضفـي حزنـاً عميقـاً علـى المكـان. وتُذكّرنـا خيـام البـدو، التـي تُـرى مـن حيـن لآخـر مُقامـة فـوق هـذه الآثـار، بفتـرة زمنيـة طويلـة مـن الدمـار تفصـل بيـن الماضـي والحاضـر. لاحـظ أن المدينـة تقـع علـى تلـك السـاحة التـي تُشـكّلها جبـال البنتابوليـس عنـد قممهـا،

كما وصفها الجغرافي اليوناني سترابو[1] حين قال إنها تبدو من البحر مرتفعة كما لو كانت على هضبة.

ربما مرّت ساعة منذ أن كنت أتأمل هذا المشهد الرائع، وكنتُ أستعدّ لفحص الأشياء بدقة؛ لكن الشمس كانت تقترب من الغروب، وجاء الرجلان من قبيلة سكياو يُلحّان عليّ للعودة مسرعًا إلى المخيم، لأنهما لم يكونا يعتقدان أننا بأمان في تلك الجبال عند الغسق.

الرسالة الثانية عشرة من نبع قورينا.

إذا كنت مسافرًا من بربريا، فربما سمعتَ عن الاعتقاد السائد هنا بوجود مدينة متحجرة في هذه المناطق. لا أستطيع أن أخبرك ما الذي أثار هذه الشائعة، لكن من المؤكد أن مظهر قورينا قد أوحى بهذه الفكرة لبعض المسافرين الجاهلين. اليوم تجولتُ في أحد شوارعها، الذي لا يزال يحتفظ بمظهره الأصلي؛ فهو ليس منحوتًا بالكامل من الحجر الصلب فحسب، بل يحيط به من جانبين صف طويل من المقابر المربعة المنحوتة من الصخر. على جانب أحد هذه الشوارع، وجدت كلمة ΙΠΠΙΚΟΣ مكتوبة بأحرف كبيرة.

مع أن النقش يُظهر بوضوح أن هذا الطريق كان مخصصًا لسباق الخيل، إلا أنني لم أتوقع أن أرى الأرض محفورة بعمق بفعل عجلات العربات. من المعروف أن القورينيين كانوا بارعين في الفروسية وقيادة العربات،[2] وأرسل إليكم عملة عُثر عليها بين هذه الآثار، عليها من جهة عجلة ونقش «كيبانا»، ومن الجهة الأخرى حصانٌ يركض. وقد تأكدتُ لاحقًا أن جميع الطرق المتبقية في محيط هذه المدينة تحمل آثار أخاديد عميقة، حافظت عليها جودة الحجر وعزلة المكان.

1-سترابو، الجغرافيا، الكتاب 17. (المؤلف)

2-سترابو، الكتاب 17؛ بيندار؛ زينوفون؛ ديودور الصقلي (المؤلف)

على حد ما استطعت رؤيته وسط هذا الخراب، كانت المياه التي تتجمع في هذه الشوارع خلال موسم الأمطار تُصرف عبر قنوات إلى أحواض كبيرة، يمكن رؤيتها محفورة على مسافة قصيرة من جانبي هذا الشارع. يا له من ترشيد في توزيع المياه، مع وجود هذا العدد الكبير من الخزانات والبرك والقنوات!

لا تقتصر رؤية القنوات والخزانات على أنقاض المدينة فحسب، بل تمتد لتشمل المنحدرات الجبلية المؤدية إليها؛ مما يؤكد أن كل قطرة ماء سقطت من القمم أو تفجرت من الأرض كانت تُجمع وتُوزع بدقة متناهية عند الحاجة.

إلى الشمال من المدينة، يرتفع تل تحيط بقاعدته الجنوبية أروع الآثار، حيث تتناثر بقايا جدران طويلة وشظايا أعمدة وقواعد رخامية. وعلى حجر مربع نصف مدفون، قرأت النقش اللاتيني التالي:

IVS MF PACILEVS

إن نمط العمارة واستخدام الجرانيت والرخام الأجنبي، الذي لم يسبق أن استخدمه القورينيون في مبانيهم الأصلية، يشير بوضوح إلى أن هذه الأعمال تعود للعصر الروماني. وليس بعيداً من هنا، وجدتُ حطام تمثال كشف الزمن عن هيئة جالسة ترتدي رداءً، وبجانبه قاعدة تحمل نقشاً.

ترجمة النقش الإغريقي الوارد في النص:

(... إيرايو ... ... بيسوينيوس ... هيب (و) كلاوديوس سارا (بيو) نوس، الابن بانكابس. تيـ (بيريوس) كلاوديوس إستر... بن فيليسكو. تيـ (بيريوس) كلاوديوس أسكلابوس بن فيليسكو. إيـ... سينيوس... إيانو نويوس (المحسن). ... لاوايوس - تيكا ...)[1]

1-ملاحظة: يظهر في النقش تكرار لاسم تيبريوس كلاوديوس، وهو اسم يدل على حصول هؤلاء الأشخاص على المواطنة الرومانية في عهد الأباطرة الكلاديين (مثل الإمبراطور كلوديوس أو نيرون)، مع الاحتفاظ بأسمائهم وأسماء آبائهم

عنـد النـزول مـن هـذا التـل والتوجـه شـرقاً، يظهـر الصخـر الجيـري كعمـود فقـري للجبـل، منحوتـاً بشـكل حـاد. وعنـد قاعـدة أحـد الوجهيـن المائليـن، يتدفـق مـن فتحـة بيضاويـة فـي جـوف الجبـل أحـد أغنـى الينابيـع التـي رأيتهـا فـي حياتـي. فـم هـذا النبـع محفـور ببراعـة، ويمتـد التجويـف عميقـاً فـي أحشـاء الجبـل. ورغـم تحذيـرات مرشـديّ البـدو الذيـن سـكنتهم الخرافـة بـأن هـذا المـكان مـأوى لـلأرواح الشـريرة، إلا أننـي توغلـتُ فيـه؛ فأنعشـتني بـرودة الفضـاء الجوفـي وخريـر الميـاه القـوي. وعنـد خروجـي، نسـختُ النقـش اليونانـي الموجـود علـى جانـب الصخـرة:

ΛΙΓΔΥΟΝΥΣΙΟΣΥΣΟΤΑ
ΙΕΡΕΙΤΥΕΟΝΤΑΝΣΡΑΝΑΝ
Ε ΓΕ ΥΚΕΥΑΣΕ

كل شـيء فـي محيـط هـذه النافـورة ينبـض برعـب مقـدس، وتزيـد الآثـار الشـامخة حولهـا مـن هيبـة المـكان، وكأنهـا ترسـم فـي الخيـال تصميـم معبـد عظيـم. هـذه هـي نافـورة قورينـا الشـهيرة؛ المقصـد الـذي شـدّت إليـه المسـتعمرة اليونانيـة رحالهـا بتوجيـه مـن وحـي «أبولـو». علـى وقـع خريـر هـذه الميـاه، أنشـد «كاليماخـوس» قصائـده، وهنـا تجسـدت أسـاطير الآلهـة القديمـة.

لـو امتلكـتُ الوسـائل اللازمـة، لشـرعتُ فـي التنقيـب بهـذا الموقـع، يقينـاً منـي بوجـود قطـع أثريـة وفنيـة لا تُقـدر بثمـن. لكـن، وفضـلاً عـن ضيـق ذات اليـد، فـإن البـدو ينظـرون بعيـن الريبـة والتحيـز لأي محاولـة لنبـش الأرض أو التنقيـب فيهـا. لـذا، عليكـم الاكتفـاء بهـذه النقـوش التـي اسـتخلصتها بصعوبـة مـن بيـن الرخـام المتسـاقط والمدفـون جزئيـاً.

فـي الجهـة الغربيـة، يقطـع التـل وادٍ عميـق تـزدان منحدراتـه بمقابـر منحوتـة، ومـن قاعـه يتدفـق نبعـان غزيـران؛ أحدهمـا كان يُجمـع فـي قنـاة مائيـة جميلـة اسـتخدمت سـابقاً كطريـق، والآخـر ينسـاب بيـن كتـل ضخمـة

الإغريقية (مثل فيليسكو). (المراجع)

مـن الحجـر. وعلـى كتلتيـن مـن الرخـام بالقـرب مـن هذيـن النبعيـن، نسـختُ النقـوش التاليـة التـي تضـم قائمـة بأسـماء مـن العصـور الغابـرة:

ΚΛ·ΒΕΝΟΣΤΑ ΚΛ ΚΑΡΠΣΟΕΝΟΥ

·ΜΕΛΙΟΡΟΣΘΥΓΑΤΗΡ

ΔΙΟΝΥΣΟΝΕΚΤΩΝΙΔΙΩΝ

· ΣΥΝΤΩΝΑΩ

بالإضافـة إلـى قائمـة طويلـة مـن الأسـماء مثـل «أريسـتيس فيلـون»، «غورغـوس»، «فيلـون أغاوونـوس»، و»أليكسـاندروس»، وهـي أسـماء قـد تـآكل بعضهـا بفعـل الزمـن، لكنهـا لا تـزال تنبـض بذكـرى أصحابهـا الذيـن سـكنوا هـذه الأرض قبـل ألفـي عـام.

لقـد كانـت قورينـا فـي أوجهـا مدينـة لا تُضاهـى، واليـوم تقـف أطلالهـا شـاهدة علـى عبقريـة لـم تنمـحِ رغـم الإهمـال والدمـار.

نص النقش:

(كلوديـا فينوسـتا ابنـة كالبورنيـوس ميلـور. إلـى ديونيسـوس مـن مالـه الخـاص مـع المعبـد. أريسـتيس بـن فيلـون... غورغـوس بـن مارخـو... بيمبـون لاتيـوس... أريسـتيداس بـن لايـاداس... ستفاكسـون بـن أريسـتياس... نـرو... بـن دورو فيلـون... تيمـو باتالسـو ابـن أريسـتيون. داموسـتراتوس بـن أغيسـارخو. إبـي... كـو...

سـوزياس بـن فاتيـوس. فيلـون بـن أغاوونـوس. أوتوفيلـو... ألكسـندر بـن مانـدروس، ألكسـندر بـن أيسـتوس... يـا... ويـن... راوبـا. دامـاس بـن ليوكاسـبوس.).[1]

1-النقوش الإغريقية: هي كتابات محفورة على الحجر تعود للفترات الهلنستية والرومانية في شرق ليبيا، وتعد مصدراً أساسياً لتوثيق أسماء العائلات، والوظائف الدينية، والقرابين التي كانت تُقدم في المعابد.//// ديونيسون (Dionyson): إشارة إلى الإله «ديونيسوس» (إله الخمر والبهجة عند الإغريق)؛ حيث يذكر النقش (ΔΙΟΝΥΣΟΝ ΕΚ ΤΩΝ ΙΔΙΩΝ) أي «إلى ديونيسوس من ماله الخاص»، وهو صيغة وقفية شائعة لبناء المعابد أو تقديم التماثيل.

بعد أن أتممتُ فك ما تيسر من النقوش اليونانية، عبرتُ ذلك المضيق وصولاً إلى جهة البحر، حيث يمتد التل شمالاً مشكلاً هضبة مهيبة ترتفع نحو 400 متر عن سطح الماء، تدعمها صخور شاهقة. أما الجزء العلوي من التل، بارتفاعه الذي يصل لـ 200 متر، فهو منحوت ومجوف بطريقة هندسية بديعة بالمقابر، حتى يبدو الجبل من قمة الرأس إلى القاعدة كأنه صرح معماري عملاق، تظهر فتحات المقابر فيه كأنها نوافذ لبيتٍ هائل، وتزين واجهته بقايا أروقة وشوارع منحوتة تسمح للزائر بالتجول في كل اتجاه.

لقد زرتُ العديد من هذه المقابر، وللأسف وجدتها محطمة، لا بفعل الزمن فحسب، بل بفعل جشع البشر ووحشيتهم. ومع ذلك، لا تزال بعض الأسقف تحتفظ بجصها وزينتها؛ حيث نجد رسومات لأكاليل أوراق الشجر وأفاعٍ ملتفة، تتألق ألوانها بنضارة مدهشة وكأنها رُسمت بالأمس. وقفتُ طويلاً أتأمل هذا التبجيل العظيم للموتى لدى القورينيين؛ فيا لها من مدينة تداخلت فيها حياة الأحياء بمثاوي الأموات، حتى لكان المواطن يشعر وهو يسير في الشوارع أنه لا يزال يعيش وسط أسلافه الذين سكنوا المدينة عبر العصور.

غادرتُ المقابر بقلبٍ مثقل بالذكريات الحزينة، ونزلتُ إلى السهل الممتد نحو الشمال. هذا السهل هو عنوان الخصوبة؛ فمياه الينابيع التي

قورينا (Cyrene): تظهر الأسماء في النقش (مثل أرستيس، فيلون، وغورغوس) وهي أسماء شائعة جداً في مدينة «شحات» (قورينا) والمناطق التابعة لها، وتبرز التأثر بالثقافة الدوريكية الإغريقية.

أسماء الأعلام (Anthronyms): يتضمن النص قائمة بأسماء مواطنين مثل «ألكسندر بن مناندروس» (ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΣ ΜΕΝΑΝΔΡΩ) و»فيلون بن أغاوونوس» (ΦΙΛΩΝ ΑΓΑΘΩΝΟΣ)، وهي توثق نظام النسب (الاسم واسم الأب) الذي كان متبعاً في السجلات الرسمية للمدن الخمس.

الهيكل (The Naos): تظهر في النقش عبارة (ΣΥΝ ΤΩ ΝΑΩ) وتعني «مع الهيكل» أو «مع المعبد»، مما يشير إلى أن هذه الكتابة تُؤرخ لعملية تشييد أو ترميم لبناء ديني أو مزار مقدس. (المؤلف)

تتدفق من المرتفعات كانت ولا تزال تتسرب إليه لتبقيه أخضر يانعاً. ولو أن سكانه اليوم بذلوا في زراعة الأرض نصف الجهد الذي بذله القدماء في نحت الصخر، لتحولت هذه المناطق إلى جنة لا مثيل لها. عند حافة السهل، تنحدر الأرض نحو البحر عبر أودية سحيقة وكهوف تظلها أشجار دائمة الخضرة، وهي الكهوف التي اتخذها «شعب الجبل» ملاذاً لهم هرباً من بطش البدو وجباة الباشا، حيث يعيشون كعائلات مستقلة بسلام وسط الصخور.

هذا التدرج في الارتفاع يفسر لنا سر «المواسم الثلاثة» التي ذكرها هيرودوت[1] إن منطقة قورينائية (إقليم برقة)، وهي الجزء الأكثر ارتفاعاً في ليبيا الذي يسكنه البدو، تجمع في ذاتها ثلاثة مواسم تستحق الذكر. يبدأ الجزء الساحلي بالفيض بالثمار التي نضجت بالفعل للحصاد والقطاف. وما إن ينتهي هذا الموسم حتى يبدأ الإقليم الأوسط، الذي يطلقون عليه اسم التلال، في التزين بثمار نضجت فيه؛ وبعد الحصاد في التلال، يمتلئ الجزء الأكثر ارتفاعاً هو الآخر بالثمار ويصل بها إلى مرحلة النضج: وهكذا، ما إن يُؤكل ويُشرب المحصول الأول، حتى يكون الثاني جاهزاً، وبذلك يستمر موسم الحصاد لدى أهل قورينا لمدة ثمانية أشهر.

وإذا كنت ترغب في معرفة أنواع الثمار التي كانت تنمو بشكل خاص في الجبال المزروعة بهذه الأقاليم المتميزة، فإنني أحتفظ لنفسي بإعطائكِ تفاصيل أكثر دقة عندما أتحدث إليكِ عن حدائق الهسبيريديس. سأكتفي الآن بإخباركِ أن الشجرتين اللتين ذكرهما ثيوفراستوس[2] بوصفهما نادرتي الجمال في قورينائية، وهما الزيتون والسرو، لا تزالان تزدهران في هذه البلاد بخضرة لم يسبق لي أن رأيت لها مثيلاً في جمالها في أي مكان آخر. كما أن الكروم كانت وفيرة جداً هناك، وهو ما لا يمكن

1-هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة 199. (المؤلف)
2-ثيوفراستوس، تاريخ النبات، الكتاب الرابع.(المؤلف)

استنتاجه من طبيعة التربة والتعرض الممتاز للشمس لهذا النوع من النباتات فحسب، بل وأيضاً من الفقرة المذكورة أعلاه لهيرودوت، وأكثر من ذلك من آثار عبادة باخوس (إله الخمر) التي تُرى بكثرة وجلال بين هذه الآثار القديمة. أما فيما يتعلق بطبيعة. فلا يزال الزيتون والسرو اللذان ذكرهما ثيوفراستوس يزهران هنا بأبهى صورة، كما تشهد آثار عبادة «باخوس» على وفرة الكروم قديماً. وبالحديث عن الزراعة، لا يسعني إلا أن أصحح ما ورد في ترجمات سترابو؛[1] فقد زعم المترجمون أن الأرض كانت تنتج «الأرز الجاف» على ارتفاعات معينة، وهو أمر يثير الضحك، فلا وجود للأرز في هذه التربة، ويبدو أن هناك تحريفاً في المخطوطات القديمة، أو سوء فهم من المعلقين الذين أغفلوا حقيقة طبيعة الأرض الجبلية الجافة لصالح تخيلات لا تمت للواقع بصلة.

«يقول سترابو (1)، إنه في الجزء الساحلي من قورينائية (إقليم برقة)، حيث كان يُعتقد قديماً بوجود حدائق الهسبيريديس، تنمو أشجار النخيل وتتوفر المياه بكثرة... وحتى ارتفاع مئة ستاديا، تنتج الأرض أشجاراً وافرة؛ ولمسافة مئة ستاديا أخرى:\ σπείρεται \ μόνον (2 όρυζοτροφει \ δ' \ ή \ γή \ διά \ τόν \ αύχμόν$)(تُزرع فقط، والأرض تنتج الأرز بسبب الجفاف).إن في هذه الفقرة ما يثير ضحك جميع سكان مناطق مزارع الأرز الموحلة في لومبارديا. لقد قدمتُ لكِ هنا الترجمة الحرفية لـ (بوناتشيولي). لكنني أتعجب كيف أن هؤلاء المعلقين العلماء، الذين جعلوا طبعة (ألميغوفين) ذات قيمة عالية، وهم المتشددون والمتزمتون عادةً، قد سمحوا بمرور هذا (الأرز الجاف) هنا دون اعتراض. لقد ساورني الشك في البداية بأن سترابو ربما أراد التحدث عن ذلك النوع من الأرز الذي ذكره بعض الرحالة.[2]

1-سترابو، الكتاب 17.(المؤلف)

2-لقد وجد (كوزابونو)في المخطوطات كلمة (μόνον) (فقط) بدلاً من (μαλλον) (أكثر)، وهذه الكلمة (μόνον) هي في تقديري القراءة الصحيحة، وقد نُفيت ظلماً

الذين ذكروا وجود نوع من الأرز يعيش خارج الماء. لكنني تأكدتُ لاحقاً أن لا سترابو، ولا أهل قورينا، ولا الإغريق كان لديهم علم بنوع آخر من الأرز سوى النوع الشائع؛ وهو النوع نفسه الذي يقول عنه ثيوفراستوس: ζῶν \ πολὺν \ χρόνον \ ἐν \ ὕδατι ([1]) (الذي يعيش وقتاً طويلاً في الماء). ومع ذلك، لو صُححت كلمة واحدة فقط، وفُهمت ثلاث من حروفها بشكل مختلف، لاختفت كل الغرابة في هذه الفقرة من نص سترابو، ولاتفق كل شيء مع طبيعة الأماكن. فبدلاً من قراءة كلمة ὄρυζοτροφει (تنتج أرزاً)، أنا أقرؤها ὀλίγοτρεφει، وأترجمها بناءً على ذلك: (ولكن فوق مئة ستاديا أخرى يُزرع فقط، لأن الأرض، بسبب جفافها، لا تغذي إلا القليل). بهذا يختفي (الأرز الجاف)، وتصبح المناطق المرتفعة من قورينائية، التي لا تستطيع بسبب نقص المياه تغذية واحات النخيل في الجزء الساحلي ولا أشجار المنطقة الوسطى، مخصصة فقط لزراعة الحبوب. وأكاد أراهن أنه إذا تم الرجوع إلى المخطوطات القديمة، فإن تخميني هذا سيُؤكَّد.»

منذ العصر الهوميري[2] وحتى اليوم، ذُكرت سلالة «آكلي اللوتس» الذين عاشوا في كهوف الصخور واستمدوا غذاءهم من ثمرة اللوتس شديدة الحلاوة التي جعلت رفاق أوديسيوس ينسون وطنهم. ورغم أن عالم النبات دي فونتين ظن أنه وجد أحفادهم في «سيرت الصغرى»،

إلى الهامش، وتكاد تُستبعد تماماً في أي طبعة جديدة لهذا الجغرافي.» (المؤلف)

1- Hist. Plant.: اختصار لعنوان كتاب «تاريخ النبات» (Historia Plantarum) للفيلسوف والعالم الإغريقي ثيوفراستوس؛ ويُعد هذا العمل أقدم موسوعة علمية في علم النبات، وقد استند إليه الرحالة والباحثون في وصف الغطاء النباتي والمحاصيل الزراعية في إقليم قورينا (برقة) قديماً. (المراجع)

2- Homer. Odiss.: إشارة إلى ملحمة «الأوديسة» للشاعر الإغريقي هوميروس؛ وتحديداً الأجزاء التي تناولت ليبيا وأرض «لوتوفاجي» (آكلي اللوتس)، حيث كانت نصوص هوميروس مصدراً جغرافياً وأسطورياً أساسياً اعتمد عليه الكتّاب اللاحقون في وصف الساحل الليبي. (المراجع)

إلا أنني أزعم أن آكلي اللوتس الذين ذكرهم هوميروس هم سكان ساحل قورينا. فوفقاً لهيرودوت، تقع منطقة جنداني شرق سينيفوس، ولا يوجد ساحل يمتد في البحر هناك سوى ساحل قورينا . ويؤكد سترابو أنهم امتدوا حتى شمال قورينا. إن سفينة أوديسيوس التي فاجأتها الرياح الشمالية عند رأس ماليا لا يمكن أن تُدفع إلا نحو ساحل قورينا جنوباً، كما أن تفاصيل التزود بالماء تتطابق مع ينابيع هذا الساحل، بينما ظل هؤلاء مجهولين في كهوفهم بينما نال سكان سيرت الصغرى الشهرة.

التي جعلت رفاق أليسار (أوليس) ينسون إيثاكا، مما استدعى تقييدهم في مؤخرة السفينة لانتزاعهم من تلك الأرض المهلكة؛ كانت هذه النبتة موضوعاً لأبحاث الكثير من علماء النبات. ومنذ وقت ليس ببعيد، اعتقد عالم النبات الشهير (ديسفونتين) أنه تعرّف على هذه النبتة في ذات الأماكن التي حددها هوميروس، واعتبرها من نوع (Rhamnus Lotus L.)، ورأى في سكانها الحاليين أحفاد (آكلي اللوتس) القدماء الذين لا يزالون يسكنون الضفاف المنحدرة لسرت الصغرى ويتغذون على اللوتس. ولكن لا تعتقدي لهذا السبب أن سلالة (آكلي اللوتس)التابعين لي هي أقل نبلاً، أو أنه لا يمكن وصلها بالجذور القديمة جداً التي خلّدها الكتاب الإغريق. لذا، لا أريد منذ البداية أن أؤكد لكِ أنهم السلالة التي خلّدها هوميروس؛ بل اسمحي لي حالياً بأن أعتبرهم أولئك الذين حدد هيرودوت موطنهم في ذلك الجزء من ساحل منطقة (الجندانيين) الذي يبرز في البحر. والآن، بما أن منطقة (الجندانيين)، وفقاً لنفس الكاتب، تقع شرق (وادي كعام) (سينيبيس)، فلا يوجد في هذه الجهة أي ساحل آخر يبرز في البحر (ἀκτὴν δὲ προέχουσαν ἐς τὸν πόντον) سوى ساحل قورينائية.[1] إن تفسيري لهيرودوت يتأكد بوضوح من خلال سترابو، الذي يضيف عند حديثه عن آكلي اللوتس أنهم كانوا يمتدون

1-الكتاب الرابع من «تاريخ هيرودوت»، الفقرة 176 (المؤلف)

حتى المناطق الواقعة فوق قورينا؛[1] ومعززاً بهذه الآراء الموثوقة.

أنا أدّعي الآن أن هؤلاء (آكلي اللوتس) (اللوتوفاجي)، وهؤلاء فقط الذين ذكرهم هيرودوت وسترابو لاحقاً، هم من قصدهم هوميروس؛ وأن سكان سرت الصغرى قد اغتصبوا من هؤلاء الأوائل شرف زيارة أوليس لهم. إن هذا البطل، الذي وصل بأشرعة ممتلئة إلى رأس ماليا[2] وكان يملؤه الأمل في الرسو على أرض وطنه، قد فوجئ عند التفافه حول ذلك الرأس برياح الشمال (الترامونتانا) التي دفعته بعيداً عن مساره، وبعد عشرة أيام، قذفت به إلى سواحل آكلي اللوتس، حيث نزل إلى الشاطئ للتزود بالماء. هذا ملخص حرفي لما يمكنكِ قراءته في النص الأصلي في النشيد التاسع من الأوديسة. والآن، إذا بسطتِ أمامكِ خارطة لسواحل البحر المتوسط، ستلاحظين أن سفينة أوليس[3]، التي باغتتها رياح الشمال بأشرعة مفرودة عند رأس ماليا، لم تكن لتدفع أبداً نحو سرت الصغرى، بل كانت ستُدفع حتماً نحو آكلي اللوتس في قورينائية (إقليم برقة)،[4] الذين يقعون جنوب ذلك الرأس مباشرة. كما أن التفصيلين اللذين أضافهما هوميروس حول نزوله إلى هذا الساحل للتزود بالماء، هما سمتان واقعيتان جداً في هذا الجزء الساحلي من قورينائية. إن هذا التطابق الكبير كان يجب أن يحسم هذه النقطة في الجغرافيا الهوميرية[5]

1-كتاب «الجغرافيا» لسترابو 17 (المؤلف)

2-رأس ماليا (Capo Malea): هو شبه جزيرة ورأس بحري يقع في جنوب «البيلوبونيز» باليونان؛ ويُعرف تاريخياً بصعوبة الملاحة عنده وتقلب رياحه، وهو النقطة التي انحرف عندها مسار «أوليس» في ملحمة الأوديسة. (المراجع)

3-أوليس (Ulisse): هو «أوديسيوس»، بطل ملحمة الأوديسة لهوميروس، ملك إيثاكا الذي تاه في البحر عشر سنوات أثناء عودته من حرب طروادة. (المراجع)

4-قورينائية: إقليم برقة في شرق ليبيا؛ ويستند المؤلف في نظريته إلى أن المسار المباشر للرياح من جنوب اليونان يؤدي جغرافياً إلى «رأس عامر» أو «سوسة» في ليبيا وليس إلى تونس. (المراجع)

5-الجغرافيا الهوميرية: علم دراسة المواقع الجغرافية الواردة في ملاحم هوميروس؛ ويحاول المؤلف هنا تصحيح الاعتقاد السائد بأن «أرض اللوتس» هي

منذ زمن طويل؛ لكن آكلي اللوتس التابعين لي ظلوا مجهولين ومنسيين في كهوفهم، بينما حظي سكان سرت الصغرى بتأييد بعض المراجع القديمة والحديثة، وكثيراً ما يجعلون الناس يتحدثون عنهم في أيامنا هذه بخروجهم من

يروي سترابو أنهم لم يحتاجوا للشرب بفضل اللوتس، لكن هذا يتعارض مع رواية هوميروس ومع حقيقة المياه الصافية التي تتدفق من كهوفهم. حالياً، يعيش هؤلاء «اللوتوفاجي» المعاصرون على العسل الرقيق الذي يجمعونه من شقوق الصخور ويقايضونه مع البدو بالزبدة والدقيق والصوف. وقد وجدوا في هذه الكهوف ملاذاً من هجمات البدو وغطرسة السلطة، حيث يعيشون كعائلات مستقلة بسلام.

عند النزول من أحد الوديان أسفل قورينا باتجاه البحر، يمتد سهل تتدفق فيه مياه الينابيع، وبعد ثلاث ساعات من المشي وصلتُ إلى الشاطئ. غرباً تبرز منحدرات شاهقة تجعل الوصول للساحل مستحيلاً، أما شرقاً فيمتد شاطئ ضيق تكتظ فيه الصخور المتساقطة حتى الوصول إلى «أبولونيا»، ميناء أهل قورينا القديم. تقع أبولونيا في خليج تشكله منحدرات شاهقة، ويظهر ثلث ميل من الشاطئ بقايا رصيف الميناء القديم ومبانٍ ترتفع من الماء، وعلى اليابسة تنتشر أطلال مهيبة لمنازل ودرج فخم يطل على البحر.

في أبولونيا، تظهر بقايا معمارية مذهلة تضم أعمدة من رخام بنتليك الأبيض، ورغم تهدمها إلا أنها لا تزال تحتفظ بكيانها، إلى جانب كتل جرانيتية مربعة وأقواس صامدة وقناة مائية محفورة في جانب الجبل كانت تغذي المدينة بالماء. تحمل أحجار هذه القناة نقوشاً لاتينية باهتة بفعل الزمن، لكنها شاهدة على القوة الرومانية واستخدامهم لهذا الميناء كمحطة بحرية استراتيجية يسهل تجهيزها، ومنها:

[النقش الروماني]:

جزيرة جربة أو قابس، مؤكداً أنها ساحل الجبل الأخضر في ليبيا. (المراجع)

...A D ... C A E S ... E V ..... TI.... D E M .... CVMIC .... AEDV.... CVN

كمـا لا يخلـو المـكان مـن نقـوش يونانيـة بكلمـات غريبـة ومعقـدة علـى صخـور قريبـة مـن البحـر، تحفـظ أثـر الأمـم المتعـددة التـي تعاقبـت علـى الميـناء، الـذي يوفـر اليـوم مـلاذاً آمنـاً لقبائـل قورينائيـة ضـد غـارات اللصـوص القادميـن مـن خليـج بومبـا.

يُعرف هـذا الميـناء حالياً عنـد العـرب باسـم «مرسـى سوسـة»، وهـو بـلا شـك أبولونيـا القديمـة بنـاءً علـى موقعـه الجغرافـي الـذي حـدده القدمـاء ببعـده مئـة

سـتاديا عـن ناوسـتادمو[1] وثمانيـن سـتاديا عـن قورينـا،[2] فضـلاً عـن عظمـة آثـاره القائمـة. [3]

1-.Scil. st: اختصار للعبارة اللاتينية «Scylax stadiasmus»، ويقصد بها «ستادياسموس» (ملاح) سكيلاكس؛ وهو نص جغرافي قديم (بيريبلوس) يصف السواحل والمسافات بين الموانئ بالـ «ستاديا». يُعد هذا المرجع من أدق المصادر التي حددت المسافات البحرية على الساحل الليبي في العصور القديمة. (المؤلف/المراجع)

2-سترابو، الكتاب السابع عشر (المؤلف)

3-مرسى سوسة: مدينة ساحلية تقع في الجبل الأخضر شرق ليبيا؛ كانت تمثل الميناء الرئيسي لمدينة شحات (قورينا)، وتُعرف اليوم بمدينة سوسة التي تجمع بين النشاط البحري المعاصر والمكانة الأثرية التاريخية.

أبولونيا: (Apollonia) هي التسمية الإغريقية القديمة لمدينة سوسة، سُميت تيمناً بالإله «أبولو»؛ وتعد من أهم مدن «البنتابوليس» (المدن الخمس) في العهد الإغريقي والروماني، وتشتهر بآثارها الغارقة ومسارحها وكنائسها البيزنطية.

ستاديا: (Stadia) مفردها «ستاديوم»، وهي وحدة قياس طول إغريقية قديمة استُخدمت في تحديد المسافات الجغرافية؛ وتُقدر الستاديا الواحدة بحوالي 185 متراً

تقريباً، وقد اعتمد عليها الجغرافيون القدماء مثل سترابو وبطليموس.

ناوستادمو: (Naustathmus) ميناء ومحطة بحرية قديمة كانت تقع شرق أبولونيا (سوسة)، ويُرجح الباحثون موقعها حالياً في منطقة «رأس الهلال»؛ وقد ذُكرت في

الخرائط القديمة كملاذ للسفن نظراً لموقعها الاستراتيجي على الساحل.

قورينا: (Cyrene) هي مدينة «شحات» الأثرية الحالية، تأسست في القرن السابع

ولفت انتباهي على شاطئه رمال ملونة بلون الجلد، تبين بالفحص المجهري أن ثلث كتلتها يتكون من مرجان دقيق جداً، يظهر أحياناً كشظايا أو كتل صغيرة بحجم حبة الدخن ذات فروع مثقبة، ولا أجزم إن كان هذا هو المرجان الشائع تحطم بفعل الأمواج، أم أنه نوع قزم لم يُوصف بعد.

تحتوي هذه الرمال أيضاً على تنوع مذهل من الأحياء الدقيقة والقشريات والأنواع المرجانية وبعضها يمتلك درنات منتظمة فوق قشرة بيضاء. وقد أجريت تجربة كيميائية بوضع نصف أونصة من رمال أبولونيا في حمض النيتريك فذابت تماماً تقريباً، بينما بقيت رمال سرت الكبرى دون تغيير، مما يؤكد أن رمال سرت ذات مصدر قاري من داخل أفريقيا، بينما رمال أبولونيا ذات أصل عضوي بحري.

الرسالة الثالثة عشرة من قورينا

خلال إقامة القوات في «صفصاف»، زرت قورينا مراراً لفحص تربتها الكلسية الغنية بالأصداف وكهوفها الكثيرة المليئة بالصواعد والهوابط.و أحد هذه الكهوف نال شهرة واسعة بسبب خرافات السكان الذين يتخيلون في أشكاله الصخرية أجساداً لرجال وآلهة ووحوش متحجرة؛ فالمسلم وإن كان غير مبالٍ بجمال الطبيعة في أحواله العادية، إلا أن الخرافة تجعل منه مراقباً يتخيل في كل تشكيل صخري ما يؤكد معتقداته الدينية.

في هذه المناسبات، يستيقظ في قلبه شعور بالإجلال لله، الخالق العظيم للكون، لكن ديانته توحي إليه بأفكار حسية تُخمد كل شعور سامٍ، وتُحول إلى الشر تلك الأحاسيس التي غالباً ما تكون الخطوة

قبل الميلاد لتصبح من أعظم المدن الإغريقية في شمال أفريقيا وعاصمة لإقليم برقة؛ وتشتهر بمعابدها الضخمة وعيون مياهها الطبيعية وتاريخها الفلسفي والعلمي. (المراجع)

الأولى نحو الإيمان الحق لدى الإنسان المتمدن. وقد سنحت لي الفرصة مراراً خلال هذه الرحلة لدراسة أثر مشاهد الطبيعة المهيبة على هؤلاء المسلمين، فرأيتهم يتأرجحون باستمرار بين السذاجة والتعصب.

أعود لوصف الصخر الكلسي في برقة، والذي يبدو متجانساً في تركيبه من القاعدة إلى القمم، إلا أنه يظهر بعض التغير عند مستوى الهضبة المسطحة؛ فكسره باهت وترابي، ولونه يميل إلى الأبيض المسحوقي أو الأصفر، وهو أقل صلابة من الجير المكربن إذ يمكن ضغطه بالظفر، لكنه لا يتفتت بين الأصابع. وبالرغم من ارتفاع هذه الجبال الذي يصل إلى 600 متر، إلا أن الصخور تظل وافرة بالأصداف، خاصة من ذوات الصدفتين مثل و، وأحياناً تزدان بأصداف عدسية صغيرة تظهر فيها خصائص الأمونيتات، وهي أنواع لا توجد بين رمال الشاطئ الحالية.

إن جبال برقة تعد امتداد شرقي لسلسلة الأطلس التي تنتهي عند خليج سرت الكبير، فالملاحظات تؤكد وجود انقطاع حقيقي هناك، لكن هذا لا يمنع النظام الكلسي نفسه من تشكيل جبال برقة أيضاً. ويبدو أن الحجر الجيري الصدفي هو السائد على طول السواحل الجنوبية للمتوسط، من الجزائر وتونس مروراً ببرقة وصولاً إلى مصر عند كاتاباتموس، قبل أن يبدأ نظام جبال الجرانيت المحيطة بالنيل. وجميع هذه الجبال مغطاة بقاعدة من التربة الطميية البحرية، تكون رملية أحياناً أو مكونة من الحصى على حوافها الشمالية.

قد يظن البعض أنني نسيت الباي وحملته العسكرية، لكن الحقيقة أن الباي نفسه يبدو وكأنه نسيها بسبب توقفاتنا المطولة.و لا أستطيع تحديد أي الأخوين أكثر خوفاً؛ فالمتمرد ينسحب كلما سمع ضجيج عتادنا، ونحن نحرص على عدم مطاردته بجدية، وإذا ثبت في موقعه تراجعنا نحن بحذر. وفي هذا التناوب بين الفرار البطيء والمطاردة الأبطأ وصلنا إلى «صفصاف»، وبينما يتمسك المتمرد بدرنة، يعزي

الباي نفسه بجمع الجزية من البدو التعساء، ويقضي أيامه مستلقياً مع مماليكه تحت عباءته دون قلق.

في أحد الأيام، عندما رآني عائداً من قورينا، سألني بنبرة ازدراء: «أنتم المسيحيون لديكم ولع غريب بالبحث عن البيوت المهدمة، فأخبرني، هل اكتشفت كنزاً عظيماً في غرنا؟». فأجبته: «يا سيدي، من أعالي تلك الجبال يتدفق ماء نقي جداً يكفي لإرواء عطش جيشك وقطعانك بالكامل دون أن ينقص». أثار هذا التقرير فضوله، فتدفق الماء هو الظاهرة الوحيدة التي استوعبها، وبعد أن أكد البدو صحة كلامي، قرر مرافقتي في اليوم التالي لمشاهدة هذا «العجب». وهكذا انطلقنا فجراً مع حاشيته نحو قورينا عبر الطريق الذي تصطف على جوانبه الآثار الضخمة.

تظهر هذه المعالم الشامخة للعيان بمجرد الإطلال على سفح الجبل، ولا يمكنني وصف الأثر الذي تركه هذا المشهد المهيب في نفوس هؤلاء البرابرة؛ فقد صمتوا مذهولين، وتبادلوا النظرات مندهشين من قدرة «الفن المسيحي» على إبداع مثل هذه العمائر المذهلة. ولما وصلوا إلى ينبوع أبولو، ورأوا كميات المياه الهائلة تتفجر من قلب الصخر وتتدحرج بين الحجارة، أطلقوا صيحات فرح مدوية واحتشدوا حوله. وارتمى الباي عند حافته يغمس يديه وقدميه ورأسه في الماء، وقلده أتباعه بانتصار يشبه اندفاع سرب من الإوز نحو الماء بعد طول حرمان. وصدرت الأوامر فوراً بانتقال الجيش بالكامل من «صفصاف» للتخييم في قورينا، حيث نصب الباي خيمته قرب النبع، ولم يمر يوم دون أن تتلوث تلك المياه، التي كانت مقدسة لأبولو، بماء غسله وغسل عبيده، بينما كان يقضي جل يومه مستلقياً هناك، لا يشغله شيء سوى الاستماع لخرير الأمواج.

في العشرين من يونيو، وبينما لم يكن الباي قد اكتفى بعد من التملّي بنبع قورينا، وصلت أنباء تفيد بأن المتمرد، الذي تملكه الرعب من مركزنا في قورينا، فر من درنة ولجأ إلى خليج بومبا عند حدود مصر. أيقظ هذا الخبر روح الباي الحربية، فأمر بملاحقة الهارب حتى درنة على الأقل. غادرنا قورينا في الحادي والعشرين متجهين شرقاً نحو «القبة»، في رحلة استغرقت ثماني ساعات عبر هضبة الجبل. ولا تزال بقايا المباني والشوارع القديمة المنحوتة في الصخر الحي تظهر بين الحين والآخر، حاملة أخاديد عميقة حفرتها عجلات العربات القديمة، وهو ما يثير العجب بالنظر إلى غياب أي أثر للمركبات بين السكان الحاليين، الذين استبدلوا تلك الشوارع الوعرة بآثار أقدام الجمال أو أقدام البؤساء الحافية.

تُعد «القبة» محطة استراحة للمسافرين، حيث يوجد نبع دائم التدفق يصب في حوض يحيط به رواق صغير، وهو بناء أثري من مخلفات قورينا القديمة لم يحمه من الغزاة سوى حاجة الجميع للماء. وقد احتمينا من شمس الظهيرة في بعض المقابر المنحوتة بجوار النبع حتى انقضاء ساعات الاستراحة. وإذا كانت الرحلة إلى القبة ممتعة، فإن الطريق منها إلى درنة كان شاقاً وخطراً؛ إذ سلكنا ممرات ضيقة متعرجة بين منحدرات صخرية وأدغال من شجيرات السرو، حيث تعثرت الخيول في كل خطوة. ولو وُجدت حفنة من الرجال المدربين في كمين وسط تلك الأدغال، لكانوا قد أبادوا الجيش بأكمله، لكن العدو لم يكن أقل منا جهلاً وتخبطاً. وبعد خروجنا من هذا الممر الوعر، انفتحت أمامنا إطلالة على البحر قرب درنة، حيث اضطررنا للنزول من منحدر صخري شاهق وجراد، كلفنا حياة العديد من الخيول.

تقع درنة على سهل خصب يحضنه خليج بحري، وتنتشر فيها

أشجار النخيل والزيتون والعنب والتين والمشمش، وتبرز فيها بشكل خاص أشجار «تين آدم» (موز الجنة) بأشكالها الآسيوية، وهي الوحيدة التي رأيتها على هذه الشواطئ. تحيط بالبلدة بساتين الحمضيات، وعلى الرغم من انتظام شوارعها، إلا أن منازلها المبنية من الحجارة والطين تبدو متشققة وتنضح بالفقر، وهو ما يعكس كسل السكان رغم توفر الحجارة الصالحة للجير وحطب الغابات القريبة. وتتوسط المدينة قلعة الباي، وهي بناء ضخم لكنه متهالك وبائس كبقية البيوت.

يتفجر نبعان غنيان جداً بمياه ممتازة من ظهر الصخور التي تنحدر نحو درنة. أحدهما يُجمع في قناة مائية (قنطرة)، وبعد أن يمر عبر الشوارع، يُستخدم لري السهل المحيط بها. أما النبع الآخر، فمخصص لنفس الأغراض لقرية المنصور (Bemensora)، التي تقع على بُعد ربع ساعة من المدينة.

ومن الأسماء التي تُطلق على هذين النبعين، يمكنكِ أن تأخذي فكرة عن المكانة العالية التي تُولى للماء في هذه المناطق؛ إذ يُسمى أحدهما عين درنة، والآخر عين المنصور، وهذا يعني: إنسان عين (بؤبؤ) درنة، وإنسان عين المنصور. إن عمليات الري المستمرة، والرطوبة التي تتسرب إلى هذا السهل من الجبال المحيطة به، والحرارة التي تتجمع في هذا الحيز المغلق، تجعل النباتات هنا تنمو بغزارة تفوق كل تصديق.

تتوفر في درنة كل مقومات العيش الرغيد لسكان معتدلي العدد يمكنهم الاستقرار فيها بسلام. فاللحوم والألبان الشهية يجلبها العرب الذين يرعون قطعانًا ضخمة في الجبال المجاورة. والسهل صالح تماماً لجميع أنواع الحبوب، وتنضج فيه شتاءً أرق الفواكه. وبالإضافة إلى منتجات الأرض، يستخرج السكان كميات كبيرة من العسل من النحل الذي يتكاثر بشكل مذهل بين شقوق الصخور القريبة، مما يدعم فرعاً من التجارة مربحاً للغاية ولا يكلف شيئاً.لا يسلم سكان درنة من غارات

البـدو المسـلحين، ومـن نجـا منهـم مـن القتـل، لـم ينـجُ مـن جشـع الحـكام. ويزيـد مـن مأسـاتهم ذلـك الاستسـلام للقـدر المتجـذر فـي الجهـل، والـذي يعرضهـم للفنـاء بفعـل الطاعـون الوافـد مـن مصـر؛ فبسـببه انخفـض عـدد سـكان المدينـة قبـل سـنوات مـن 7000 إلـى 500 نسـمة فقـط.

خططـت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة سـابقاً لإنشـاء مسـتوطنة فـي درنـة،[1] واسـتولت عليهـا بالفعل بعد رفـض الباشـا بيعهـا، لكنهـا تخلـت عـن المشـروع لاحقـاً لأسـباب مجهولـة. لـم يبـقَ مـن أثرهـم سـوى بطاريـة مدافـع وطاحونـة مائيـة تثيـر دهشـة السـكان. ولعـل غيـاب المينـاء الآمـن هـو مـا حـال دون اسـتقرار قـوة أجنبيـة هنـاك؛ فالبحـر أمـام درنـة ملـيء بصخـور حـادة تحـت المـاء يطلـق عليهـا البحـارة «الصخـور المسـننة» لأنهـا تقطـع كابـلات السـفن. ومـع ذلـك، يوجـد عنـد رأس «بـون أندريـا» خليـج واسـع يوفـر مرسـى آمنـاً، وهـو بـلا شـك «ناوسـتادمو» القديمـة التـي كانـت محطـة بحريـة للقورينييـن. أمـا درنـة نفسـها، فمـن المرجـح أنهـا حافظـت علـى اسـمها الأصلـي وموقعهـا الـذي أكدتـه المسـافات الجغرافيـة والحصـن القديـم المطـل علـى البحـر.

فـي درنـة، وجدنـا آثـاراً مروعـة للفظائـع التـي ارتكبهـا البـاي المتمـرد؛ فعنـد رحيلـه، رويـت أرض القلعـة بدمـاء عبيـده وضحايـاه الذيـن ذبحهـم لإرضـاء شـكوكه ومنـع الآخريـن مـن التمتـع بممتلكاتـه. هـذه الوحشـية أدت لنفـور القبائـل عنـه، فبمجـرد وصولنـا أعلنـت ولائهـا للبـاي أحمـد. رحـب

1-يخطئ المؤلف في تأويل الغرض من الوجود الأمريكي في درنة (1805م) بوصفه مشروعاً استيطانياً؛ والحقيقة أن تلك الحملة بقيادة «ويليام إيتون» كانت مناورة عسكرية سياسية تهدف لتنصيب «أحمد القره مانلي» حاكماً لطرابلس بدلاً من أخيه «يوسف باشا» لضمان أمن الملاحة الأمريكية. ولم يكن انسحابهم ناتجاً عن غياب الميناء، بل نتيجة توقيع معاهدة سلام مفاجئة في طرابلس جعلت من وجودهم في درنة عبئاً سياسياً؛ أما الطاحونة والمدافع فكانت تجهيزات لوجستية ضرورية لتأمين القوات وتثبيت حكم حليفهم المؤقت لا لوضع حجر أساس لمستعمرة دائم. (المراجع)

الباي بشيوخ القبائل وطلب 22 رهينة من أغنى العائلات لإرسالهم إلى طرابلس كضمان للولاء، وافق البدو بجهل، وسيق هؤلاء التعساء لمصير محزن.

الرسالة الخامسة عشر من درنة إلى خليج بمبة، والعودة إلى بنغازي

لقد تركت أنباء وصولنا إلى درنة، والخضوع التام للباي أحمد من قِبل القبائل المتمردة، بلا أمل؛ لذا ترددت هنا إشاعة مفادها أنه، بعد أن بقي وحيداً، كان يسرع لمغادرة ولايات والده ليلجأ إلى مصر، طامعاً في حماية الباشا محمد علي، قريبه. وبعد أن دُرست هذه الأنباء جيداً في مجلس الباي، وخاصة واقعة بقاء المتمرد وحيداً، تقرر التوجه بقواتنا حتى خليج بمبة.

والحق يقال، إن أي عسكري محنك، مهما بلغت جسارته، كان سيتردد قليلاً قبل المغامرة بتهور في مسيرة ثمانية أيام من المشي وراء مركز التمرد هذا. فمن حيث المؤن، كنا معتمدين كلياً على حسن نية السكان؛ ولم يكن بإمكاننا الاعتماد كثيراً على حسن النية هذه، لأننا كنا نسافر في بلاد تسودها حالة من عدم الرضا؛ فأولئك الذين لم يعودوا يبدون كذلك [ساخطين]،

لكن جُبن العدو منحنا سمعة طيبة في الشجاعة. لقد كنا نُعتبر لا نُقهر، لمجرد أنه لم يهزمنا أحد في الواقع؛ ولكن لم تخطر لأحد حتى الفكرة السيئة لمحاولة اختبار ذلك. لا تتوقعي مني أن أحبسكِ طويلاً في وصف هذا المسار، الذي قُطع على أي حال على عجل شديد. فلم تكن هناك زوايا للمرابطين لزيارتها، ولا مؤن لجنيها تجبرنا على التوقف. إن طبيعة البلاد وخلقها لا تختلف عن طبيعة إقليم قورينائية؛ إذ توجد بها ذكريات متكررة وجليلة لسكان قدامى؛ لكن كل شيء الآن غير مزروع،

مهجور، وقاحل.

لقد سافرنا في مواقع جبلية وعرة، تحييها أشجار كثيفة دائمة الخضرة، يسيطر عليها هنا أيضاً السرو، والعرعر (Thuja)، والقتلب (Corbezzoli)، والعرعر الفينيقي، والميرتل (الريحان) العملاق، والخروب، والكثير من الغار. وهي لا تشكل غابات ممتدة ورتيبة، بل تبرز دائماً في مجموعات من الصخور، وتزينها بألف طريقة مختلفة وخلابة دائماً. الأرض هنا متقطعة وغير مستوية دائماً، ولم يتصادف لي رؤيتها تنبسط في المروج الجميلة المميزة لجبال قورينا؛ ومع غياب المواقع التي تفيض بالمراعي، ينتهي السبب الوحيد الذي يجذب السكان الرحل لهذه الأنحاء. غير أن الطبيعة الحرجية والمرتفعة لهذه المنطقة تحافظ على ينابيع متكررة من المياه الباردة والصافية جداً، وكان من حسن حظنا أن نتمكن بهاكانت المياه تروي عطشنا بشكل مخيف؛ لقد كان عطشنا شديداً لدرجة أن السفر المستمر في هذا الموسم، مع انكشاف الشمس، كان يزعجنا كثيراً.

وفي اليوم الثامن، وبعد أن غادرنا هذه الأكواخ أخيرًا، وجدنا أنفسنا على مرأى من البحر الأبيض المتوسط وخليج بومبا. إنه مدخل بحري واسع، تحيط به من الغرب جبال شاهقة شديدة الانحدار، وتشكل رأس رازات، ومن الشرق تنحدر هذه الجبال بلطف لتشكل تلالًا منخفضة، تبدو في الأفق كسهل شاسع. من رأس رازات، يمكن رؤية ثلاث صخور كبيرة ترتفع من الماء، وكأنها جزر صغيرة، تبرز باتجاه الجزء الشرقي من الخليج.

يُقرّ الجغرافيون بحقّ بأن خليج بومبا كان ميناء مينيلوس، الذي ذكره هيرودوت وسترابو وسكيلاكس وبطليموس وغيرهم من المؤرخين القدماء. ورغم أن القيروانيين بسطوا سيطرتهم إلى هذه المنطقة، إلا أنهم لم يتركوا آثارًا كثيرة لقوتهم، على حدّ علمي خلال فترة إقامتنا القصيرة هناك. ومع ذلك، يُشاع بين البدو أن في قاع الخليج، في الداخل قليلًا،

توجد بحيرة تتوسطها جزيرة صغيرة، حيث يمكن الاستمتاع بمشاهدة آثار قديمة رائعة.

كنا هنا على حدود إيالة طرابلس ومصر: وهي حدودٌ غامضةٌ وغير محددةٍ تمامًا، لأنه في ظل الحكومات الاستبدادية الحقيقية، كانت السلطة دائمًا مُركّزة في شخص الحاكم، وخارج هذا النطاق كل شيء عبارة عن فوضى عارمة. وهكذا، لا تزال هذه المنطقة الحدودية بين الولايتين، كما كانت في الماضي، ملاذاً للصوص والساخطين والمجرمين الذين يزدهرون في هاتين الدولتين، اللتين تُعدّان بيئة خصبة لهذه الحثالة. ينصبون خيامهم على مشارف هذا الخليج، ومن هناك يجوبون المناطق المجاورة، ينهبون كل من يقع في قبضتهم من البؤساء. والحجاج والقوافل التي تعبر هذه الشواطئ في طريقهم إلى مكة المكرمة هدف دائم لنهبهم. وهذا هو الطريق الوحيد الذي يستخدمه المغاربة في المقام الأول، والذين يتميزون، أكثر من غيرهم من المسلمين، بإيمان راسخ بالنبي. في الواقع، لا يبدو أن عتاد الحاج يُغري جشعهم. يرتدون أثوابًا سوداء بالية، حفاة، مكشوفي الرؤوس، لا يحملون من مؤنهم سوى قربة نبيذ مملوءة بدقيق الشعير، فيبدون أكثر ملاءمة لإثارة الشفقة في نفوس من يقابلهم من أن يكونوا إغراءً للصوص. لكن تحت عباءة التوبة هذه، يخفي الحاج أحيانًا غبار الذهب، الذي يُجلب من داخل أفريقيا إلى المغرب، ومنه تشهد هذه المدينة حركة مرور كثيفة من قوافل مكة. ويكفي مجرد الشك في وجود هذا المسحوق القاتل، لأن العديد من هؤلاء الحجاج الذين يقعون ضحية للصوص يُسرقون.و لم يمضِ وقت طويل منذ أن تعرض أمير المغرب، رغم مرافقة ثلاثة آلاف من رجاله، لهجوم من هذه الجحافل، ونهبوا جميع قواته. ولعدم وجود حجاج ينهبونهم، اعتمد هؤلاء اللصوص على غلة الماشية التي سرقوها من القبائل المجاورة خلال غاراتهم.

مع وجود مثل هؤلاء، كان علينا أن نكون مستعدين للعودة من

بومبا خاليي الوفاض؛ وكان هذا أهون المصائب التي قد تحل بنا. عند وصولنا، انتقلوا من هذه السهول ونصبوا خيامهم على بعد أميال قليلة. قال الباي: «لحسن حظهم أنهم فروا إلى منطقة مسار (كما يسمون القاهرة)؛ وإلا لكنت أبيدهم». وفي يوم رحيلنا نفسه، عادوا إلى مواقعهم، وواصلنا رحلتنا دون أن نلاحظهم.

بوصولنا إلى هذه الحدود، يمكن اعتبار حملتنا قد اختُتمت بنجاح؛ فمن طرابلس إلى حدود مصر، ظاهريًا على الأقل، كان كل شيء تحت السيطرة. لذلك، أسرعنا بالعودة، سالكين نفس الطريق إلى الأبيار. وما إن وصلنا إلى الأبيار، حتى اتجهنا شمالًا، ونزلنا من أعالي هذه الجبال، متجهين نحو بنغازي. كان الباي ينوي التواجد في هذه المدينة قبل حلول شهر رمضان، لأن الصيام الشديد الذي يلتزم به المسلمون خلال هذا الشهر لن يسمح للجنود بتحمل مشقة السفر.

ما إن عبرنا جبال الأبيار حتى وجدنا أنفسنا أمام البحر. عند سفح هذه الجبال، انكشف أمامنا سهلٌ بديعٌ يمتد من أسفل الجبل إلى الشاطئ، ويصل مداه إلى ما لا نهاية غربًا وشرقًا. تنحدر جبال قورينا تدريجيًا نحو هذا السهل، لكنها تزداد ارتفاعًا شيئًا فشيئًا، وتبرز شرقًا، وترتفع فوق حافة السهل حتى تعلو حافته تمامًا فوق الماء. يكتسي منحدر هذه الجبال، الذي تنعشه رياح الشمال الدائمة ويحميه من نسائم الجنوب الحارقة المحملة بالغبار، بخضرةٍ وارفة؛ ولو حظي بلمسة مزارع، لأصبح أكثر خصوبة من أي وقت مضى. لا أدري إن كانت شجرة الكستناء ستجد رطوبة التربة التي تحتاجها لتثمر في جبال قورينا الشاهقة؛ فبالتأكيد لم أرَ هذه النبتة من قبل. لكن هذا المنحدر الجبلي بأكمله يمكن أن يُغطى ببساتين الزيتون وكروم العنب، ولا يوجد نوع من الفاكهة لا يزدهر وينمو على تلاله الساحلية. والأهم من ذلك كله، أنه من المحزن رؤية السهول الجميلة الممتدة إلى سفوح هذه التلال والساحل، والتي يمكن زراعتها بكل أنواع الحبوب، مهجورة وغير

مزروعـة.

لكـن فـي أيـام البنتابوليـس الخوالـي، اكتسـبت هـذه المنطقـة شـهرةً واسـعةً بخصوبتهـا، حتـى أنهـا اسـتمدت مـن هـذه المواقـع مـا تبقـى مـن حقيقـة فـي أسـطورة حدائـق الهسـبريدس الشـهيرة. إن الصـورة التـي نقلهـا إلينـا سـكيلاكس فـي كتابـه «بيريبلـس» لموقعهـا وحالتهـا النباتيـة القديمـة تحافـظ علـى سماتها الأساسية بشـكلٍ دقيـقٍ للغايـة، لدرجـة أننـي لا أسـتطيع نقلهـا هنـا حرفيًـا. لا يوجـد مينـاء فـي قورينـا، لأنهـا تقـع علـى أرض مرتفعة، ومنحـدرة بشـدة حتـى الهسـبريدس. أمـا الخليج نفسـه، الـذي يشـكله رأس فيج، فهـو غيـر قابـل للوصـول. هنـا تقـع حديقـة الهسـبريدس: وهـي عبـارة عـن سـور يبلـغ طولـه 18 قامـة، محفـور بشـكل حـاد مـن جميـع الجهـات، بحيـث لا يمكـن النـزول مـن أي جـزء منـه. تمتـد الحديقـة فـي كل اتجـاه بمقـدار سـتادين، عرضًـا وطـولًا. هـذه الحديقـة كثيفـة الأشـجار، متفرعـة ومتتشـابكة. توجـد أشـجار اللوتـس، وأنـواع التفـاح كافـة، وأشـجار الرمـان، والإجـاص، والفراولـة، والتـوت، والعنـب، والآس، والغـار، واللبـلاب، والزيتـون، واللـوز، والجـوز. فـي هـذا المقطـع، يمكـن للمـرء أن يـرى بوضـوح شـكل منطقـة قورينائيـة المرتفعـة، ومنحدراتهـا الشـاهقة المطلـة علـى البحـر، وبيـن هـذه المنحـدرات، التـي ترتفـع علـى حافـة السـهل الموصـوف آنفًـا، تقـع الحديقـة.

حديقـة الهسـبيريدس. لا داعـي لأن أشـير إلـى أن معظـم النباتـات التـي ذكرهـا سـكيلكس مـن تلـك الحديقـة لا تـزال تنمـو طبيعيًـا فـي هـذه التربـة، ويمكـن إدخـال المزيـد منهـا بسـهولة. ويقـول كاليماخـوس أيضًـا، الـذي لا بـد أنـه كان علـى درايـة بالحالـة القديمـة للبـلاد التـي سـكنها، إنـه قبـل أن يقـود أبولـو مسـتعمرة ثيـرا إلـى نبـع قورينـا، كانـت «أوزيـلا»، كمـا كان يُطلـق علـى هـذا الجـزء مـن قورينـا، مغطـاة بالغابـات.

إن وجـود هـذا المـكان السـاحر، أي تلـك الحقيقـة التـي شـكلت أسـاس

الأسطورة، كان معرفة جغرافية مؤكدة، ما كان للسيد جوسلين.[1] أن ينكرها على القدماء، مستندًا في رأيه إلى بعض الشكوك المتعلقة بموقع هذه الحدائق، والتي تركها مقطع استشهد به من سترابو. ومن تفسيره لهذا المقطع، يستنتج أن هذه الحديقة المزعومة لم تكن سوى قطعة أرض قابلة للزراعة، وسط الرمال، مثل الواحة العظيمة. ولكن لا توجد واحة على هذا الساحل، والاستشهاد بسترابو بشأن حدائق هيسبيريدس لا طائل منه، لأن المقطع المذكور، بإجماع جميع العلماء، محرف تمامًا، وبطريقة تجعل عناية سالماسيوس وكوسابونو وغيرهما من المعلقين المشهورين الذين حاولوا تعويضه، باعترافهم الخاص، عبثيين وغير مثمرين تمامًا.

لا شك لديّ في أن وصف هذه الحدائق، كما كتبه الشعراء، قد تضمن، على حساب الحقيقة، العديد من الإضافات التي ربما ظنّها من لم يزرها حقيقةً عن غير قصد. في هذه الحالة، يكفي معاينة الموقع نفسه، ومقارنته بأوصاف الجغرافيين القدماء الذين زاروا تلك المناطق، للتمييز بين الحقيقة والخيال. هذه المقارنة، وإن لم تُحدد بدقة موقع هذه الحديقة، تُخبرنا على الأقل أن الأسطورة كانت مبنية على الجغرافيا، وأن طبيعة المكان لا تختلف عن تلك الأوصاف.

عند دخولنا هذه التلال، وجدنا آثارًا كثيرة ومهيبة للشعوب القديمة التي استوطنت هنا. كانت آبارًا عميقة، محفورة في الصخر إلى عمقٍ كبيرٍ لدرجة أننا اضطررنا لاستخدام حبلٍ طوله مئة قدم أو أكثر لسحب الماء، الذي كان ذا جودة ممتازة. تحيط بها بقايا أحواض، وتوجد هنا وهناك أيضًا بقايا قنوات مائية، لا بد أنها كانت تتفرع إلى الحقول المجاورة. كما تظهر آثار طريق قديم هنا وهناك، أعتقد أنه كان يؤدي إلى المدن الكبيرة التي كانت قائمة على طول هذا الساحل. سأتحدث عن هذه المدن واحدة تلو الأخرى، بعد أن أقدم لكم بنغازي، حيث آمل

1-أبحاث في جغرافية القدماء، ص. 140 (المؤلف)

أن أستريح هذا المساء بعد رحلة اليوم.

الرسالة السادسة عشر من بنغازي

تقع بنغازي في هذه الرقعة من السهل بالقرب من البحر في خليج مفتوح من جهة الشمال، حيث يمكن للسفن الصغيرة أن ترسو بأمان. تمنع الصخور المرتفعة عند مدخل هذا الخليج دخول السفن، كما تجعله خطيرًا على الملاحين عديمي الخبرة. في أوقات الأزمات، وتلجأ السفن الكبيرة إلى مرسى تاجوني،[1] على بعد خمسة أميال غرب بنغازي. خلف المدينة بركة متصلة بالبحر عبر قناة ضيقة، حيث يمكن لقوارب الصيد أن تدخلها؛ وتتردد على مياهها طيور الفلامنجو وغيرها من الطيور المائية. إذا كانت بنغازي مبنية بشكل أو بآخر على أنقاض مدينة برنيس القديمة، كما تشير بقايا المباني القديمة بالقرب من المدينة وداخلها، فلا بد من اعتبار هذه البركة مستنقع تريتونيس الذي ذكره سترابو. لكن لا تسألني عن تفسير الجزيرة الصغيرة، ولا عن معبد فينوس الذي كان قائمًا في وسط هذه البركة، ولا عن نهر لاتون، أو ليثي، الذي لا بد أنه كان يصب على هذه الشواطئ. قد يعود اختفاء المعبد، بل وحتى الجزيرة الصغيرة أو الصخرة التي كانت تشكل قاعدته، إلى مرور الزمن. أما بالنسبة لنهر لاتوني، فسأخبركم بوضوح أنه لا يوجد أثر لمجرى نهر حقيقي في هذا الامتداد الساحلي بأكمله، الممتد من بيرينيس باتجاه رأس راس-سيم. ولكن يجب فهم مصطلح «النهر» الذي استخدمه القدماء بحذر شديد في هذه المنطقة؛ فقد رأيته يُستخدم لوصف أي جدول صغير يتدفق في موسم الأمطار من التلال ويختفي في الشاطئ الرملي، ولا يترك في الصيف إلا أثراً ضئيلاً لمجرى النهر.

1-مرسى تاجوني (Tajuni): يقصد به منطقة «تيكا» الحالية (خشم الكبش)، وهي منطقة ساحلية كانت تُستخدم تاريخياً كمرسى بديل للسفن الكبيرة التي لا تستطيع دخول ميناء بنغازي الضحل. (المراجع)

في السهول الممتدة حول المدينة، يمكن رؤية بعض أشجار النخيل، وبقع قليلة من الشعير. أما ما عدا ذلك فهو أرض قاحلة مهملة. الشاطئ مليء بالرمال التي يكدسها البحر والرياح. المدينة بأكملها متناثرة بأحجار مربعة جميلة وآثار مبانٍ قديمة. يقوم سكان بنغازي بتكسير هذه الأحجار الجميلة إلى قطع لاستخدامها في منازلهم المتواضعة، والتي تُبنى هنا أيضًا بالطين. أسقفها مصنوعة من أعشاب بحرية مثبتة بنفس الإسمنت الطيني. كل عام، مع اقتراب موسم الأمطار، يقومون بترميم منازلهم؛ ولكن يحدث أحيانًا أنه قبل توقف الأمطار، تنهار هذه الأسقف الهشة.

السقف مُدمّر، والجدران تتهاوى، وقلعة الباي لا تختلف قيد أنملة عن هذا النمط المعماري؛ فهي مُحصّنة بتسعة مدافع مُوجّهة نحو المدينة، لكن الضرر الأول يقع على جدران القلعة نفسها التي تتهاوى مع كل طلقة. يبلغ عدد سكان بنغازي حوالي 5000 نسمة، نصفهم على الأقل من اليهود، وهي عاصمة الولاية ومقر إقامة الباي الذي يجمع في يده السلطات المدنية والعسكرية والقضائية، ويتولى أحياناً تنفيذ الأحكام بنفسه. وتقتصر وظائف هؤلاء الحكام على جمع الضرائب الدائمة والعفوية، وبمجرد جمع الجزية تنقطع كل علاقة بين الرعية والحاكم. وقبل فترة وجيزة، هاجمت قبيلة من البدو الريفيين بنغازي وطردت سكانها الأصليين واستقرت في منازلهم، ولم يكترث الباشا بهذا العنف ما دام الضيوف الجدد قد سارعوا لدفع الجزية، بل أثنى على المدينة التي دفعت جزيتين في عام واحد.

من بين كل المصاعب في هذه المناطق، لا شيء يُضاهي ما يسببه الذباب في بنغازي؛ فهذه الحشرات لا تكتفي بالمنازل بل تعج بها الشوارع والساحات، ويستحيل التخلص منها دون عناء دائم. يكاد يكون من المستحيل إلقاء خطاب طويل دون ابتلاع العشرات منها، ولا يمكنك كتابة سطر واحد دون أن تتجمع على القلم، والويل لمن يزعجها فهي تحفر في الوجه والأنف بإزعاج لا يوصف. وما إن يُوضع طبق على

المائدة حتى تهبط بأعداد هائلة تغطيه، ولا سبيل سوى تناول الطعام في وقت متأخر من الليل وإغلاق العينين. ويُقال إن كثرة الماشية ووفرة الحليب في الجبال المجاورة هما ما يجذبها، لكنني أعتقد أن هناك شيئاً في المدينة يساهم في هذا التكاثر الكثيف.

يشكل اليهود الطبقة العاملة في بنغازي، أما البقية فيعيشون في بطالة على حسابهم، ومع ذلك لا يسلم اليهودي من الظلم؛ فهم لا يمتلكون منازلهم ويدفعون مبالغ طائلة للإقامة في منازل المسلمين الذين يسيئون معاملتهم. ولقد رأيتُ ملابس يهودي فقير تُباع في المزاد العلني من قبل صاحب المنزل. لكن موقع بنغازي يجذبهم دائماً لجني المال؛ فهذا السوق تقصده القبائل العربية حاملة الماشية والصوف والزبدة وريش النعام والتفاح، وتعود بأوانٍ فخارية وأسلحة ونيران وبارود. وهناك تجارة رائجة للثيران مع مالطا لتوفير المؤن، ويُرسل الصوف إلى طرابلس لصناعة السجاد والبرانيس. ويُعد ريش النعام فرعاً تجارياً مربحاً، حيث يدفع اليهود مبلغاً سنوياً للباشا لاحتكار شرائه من البدو؛ فيجلب البدوي جلد النعامة بريشه ويبيعه بحوالي 30 قطعة إسبانية للذكر ونصفها للأنثى، ثم يعيد اليهودي بيعها في ليفورنو ومرسيليا بثلاثة أضعاف السعر.

من هذه الموارد يُدرك المرء مدى الازدهار الذي كانت ستحققه المدينة لو زُرعت الأراضي المحيطة بها ولو رُفع احتكار الحكومة. لقد كانت هذه التجارة نشطة للغاية في القرون الأولى لجمهورية جنوة، حتى أن الحكومة أصدرت مرسوماً لإنشاء مدرسة لغة سراسية في جنوة عام 1267. وتوجد معاهدة عام 1236 بين الجمهورية و»بوساتشرينو» سيد أفريقيا، سمحت للجنويين بالتجارة الحرة من طرابلس إلى حدود برقة، وشملت الصوف وريش النعام وزيوت الصابون والجلود والحبوب. ومن هذه التجارة ازدهرت صناعة الصوف في جنوة، وكانت القوة البحرية للدولة تضمن التزام المعاهدات، حتى أن طرابلس شهدت انتقامهم داخل

أسـوارها عنـد حـدوث أي خيانـة.

لقـد دفـع الزمـن ومصيـر الأمـم هـذا الوضـع إلـى التدهـور؛ لكن شـجاعة واجتهـاد جنـوة فـي المشـاريع البحريـة لـم تتضـاءل علـى الإطـلاق؛ ويعزينـي التفكيـر فـي أنهـم الآن، بتشـجيع مـن جلالـة ملكنـا، سيسـتأنفون نحـو هـذه الشـواطئ المسـار الـذي سـلكه أسـلافهم بـكل هـذا المجـد والربـح.

الرسالة السابعة عشر من بنغازي

علـى الرغـم مـن قلـة مـا تبقـى مـن أطـلال إسـبيريدس أو بيرينيتسـه الجديـرة بالذكـر، إلا أن هـذه التربـة، ومحيـط المدينـة، والشـاطئ نفسـه، تخفـي آثـارًا ثمينـة. فإلـى جانـب العديـد مـن الحلـي المتنوعـة مـن الذهـب والفضـة، والعديـد مـن العمـلات القديمـة، توجـد أحجـار كريمـة كثيـرة منحوتـة ببراعـة فائقـة، تؤكـد مـا سـجله كاتـب قديم[1] عـن شـغف القورينييـن بالنحـت علـى الحجـر الصلـب، والمبالـغ الطائلـة التـي أنفقوهـا لتوظيـف أشـهر الفنانيـن فـي هـذا المجـال. وقـد نجـح السـيد روسـوني، نائـب قنصـل جلالـة الملـك البريطانـي فـي بنغـازي، فـي الحصـول علـى مجموعـة رائعـة منهـا، وعلـى الرغـم مـن أن بعضهـا أحضـره إليـه بدونـي مـن مناطـق مختلفـة مـن برقـة، إلا أن معظمهـا وُجـد داخـل هـذه المدينـة أو فـي جوارهـا. وكنـت أتمنـى لـو كان معنـا الفنـان الشـهير إنيـو فيسـكونتي، الـذي كان سيُسـعدني كثيـرًا أن أسـتمع إليـه، مسترشـدًا بهـذه الآثـار، وهـو يغـوص فـي عصـور غابـرة ويكشـف عـادات وطقـوس الشـعوب التـي اسـتقرت تدريجيًـا علـى هـذه الشـواطئ، كمـا لـو كان قـد عـاش بينهـم واعتنـق نفـس المعتقـدات.

مـن بيـن روائـع الصناعـة اليونانيـة، لا يسـعني إلا أن أتأمل تمثـال هرقل المنحـوت مـن حجـر الـدم، ويـده اليمنـى تحمـل هـراوة، وجلـد أسـد يلـف يـده اليسـرى، لمـا فيـه مـن روعـة الصنعـة. ولا يقـل جمـالًا عنـه تمثـال كايـرون

1-إيليانوس، التاريخ المتنوع، المجلد الثاني، الفصل 30. (المؤلف)

وهو يعلم أخيل الرماية. على حجر العقيق، نحت فولكان درعًا؛ وعلى حجر العقيق الأحمر، نحت نسرًا يحمل غانيميد. وعلى حجر العقيق الأحمر، نحت تمثالًا نصفيًا لرجل متوج بالغار، بوجه نابض بالحياة، يحمل بوصلة في يده. من السهل أن نرى فيها لمسة هندسية، ولكن لا شك لديّ أن قورينا أرادت أن تُخلّد في هذه التحفة صورة إراتوستينس، أشهر مواطنيها، الذي كان أول من تجرأ على حساب محيط الأرض،[1] وقد فعل ذلك بدقة متناهية جعلت علماء الفلك المعاصرين يُعجبون بحساباته أكثر مما يُصححونها. ولا أتحدث هنا عن العديد من التماثيل النصفية والرؤوس الأخرى التي ربما خُلقت بنفس القدر لتخليد ذكرى رجال لامعين، ولكنها لا تُصاحبها أي ملامح مميزة، والتي بغض النظر عن التمييز، فإن كل ما تبقى جديرًا بالإعجاب فيها هو جمال الصنعة.

ومن الجدير بالذكر أن جميعها تحمل ملامح أوروبية فقط. وقد لفت السيد روسوني انتباهي، من بين أشياء أخرى، إلى زمردة طولها 16 مليمترًا وعرضها 12 مليمترًا، محدبة من الجانبين، تحمل على أحد جانبيها نقشًا يونانيًا، وعلى الجانب الآخر تنين مجنح يخرج على هيئة ثعبان. تنبثق من رأسه ستة أشعة متشعبة، وفي نهايتها نُقش حرف. يُسرّ السيد روسوني بتعريف هذا التنين بأنه حارس حدائق هيسبيريدس، حيث عُثر على هذه الحجرة. وأرى أنه من الأنسب استخلاص المعلومات من النقش نفسه، بدلًا من التنين. صحيح أن النقش مكتوب بكلمات قديمة كثيرة، إلا أنه سليم، والحروف محفورة بوضوح، وكل شيء يدعو علماء الآثار إلى توجيه اهتمامهم إليه.

يبدو أن بعض هذه الأحجار الكريمة تمثل شعارات مدن مختلفة، إذ نعلم أن هناك تطابقًا كبيرًا في كثير من الأحيان بين العملات المعدنية والأحجار الكريمة المنقوشة في الأعمال القديمة. ومن المؤكد أن تمثالين لكروبين يتغازلان تحت نخلة وشجرة زيتون هما من بضائع قورينائية.

1- بليني، الكتاب الأول، الفصل 108. (المؤلف)

أما الرمح الثلاثي بين دولفينين فقد ينتمي إلى محطة نويشتات البحرية، ولا أقول أبولونيا، لأنه يبدو لي أن هذا مذكور بوضوح على حجر عقيق، والذي يصور بجعة تعزف على آلة موسيقية منحنية تشبه البوق؛ ومقابلها نجمة، وعلامة (AI) مكتوبة على الهامش. ولا تزال أبولونيا تحمل اسم الإله الذي، بعد أن تحول إلى بجعة، اختطف ونقل قورينا، ابنة هيبسيوس، إلى شواطئ ليبيا.

لا أستطيع أن أحدد أيًا من هذه المدن البحرية ذات الأصل اليوناني تنتمي إلى زمردة منحوتة عليها صورة طائر أبو منجل، وهو حشرة تشبه الذبابة أو النحلة، ورأس منخفض، مع خصلة شعر على قمته، وكل ذلك تحت غصن زيتون. لا تستغرب إذا نسبت طائر أبو منجل المصري إلى مدينة ذات أصل يوناني. وأعتقد أنني أخبرتك بالفعل أن المستعمرة اليونانية التي استقرت هنا تأثرت بشكل كبير بالمصريين المجاورين. في هذا التخمين، كلما تأكدت منه، كلما تعمقت في دراسة آثارهم. ويمكنكم التأكد من ذلك بالنظر إلى 150 نموذجًا شمعيًا لهذه الأحجار، والتي سمح لي السيد روسوني باستخراجها، والتي أقدمها لكم. انتبهوا جيدًا إلى حجر العقيق اليماني الصغير، الذي يحمل رأس كبش آمون على عمود. لم يكن لعبادة هذا الإله، ذي الأصل الرعوي الليبي البحت، مذابح في اليونان. لكن اليونانيين في قورينائية لم يترددوا في السجود أمام إله الرعاة، الذي كان يجوب الجبال المحيطة: وببساطة كانوا يلبسونه الزي اليوناني. ومن بين المهن الأخرى التي مارسها ميركوري خلال حياته العاطفية، كانت هناك أيضًا مهنة الرعي. كان هذا كافيًا لليونانيين لكي يربطوا بينه وبين آمون.

رأى اليونانيون في كبش ليبيا رمزاً لآمون أكثر مما رأوه في عبادة عطارد (ميركوري)، وهذا الحجر الذي نُقش فيه الصولجان عند قاعدة العمود الذي يحمل كبش آمون يُقدم دليلاً واضحاً على هذا التخمين. لقد قام فرجيل في عصره بدمج مماثل، حيث مزج الأساطير الريفية لبلاد

«لاتسيو» بالأساطير اليونانية، فاكتسب الشعر بذلك مخزوناً لا ينضب من الجمال، لكن ذكريات إيطاليا القديمة تأثرت بهذا المزج بشكل غريب. وكلما تعمق المتبحر في دراسة هذه الجواهر، ظهرت الأزياء الأسطورية اليونانية بشكل متكرر فوق خلفية مصرية. وسيدرك الباحث أن الكثير منها قديم لدرجة تجعلها تشبه الأساطير اليونانية، ليس بسبب الآلهة والرموز المنحوتة فحسب، بل بسبب صناعتها البدائية والناشئة. لكن ضيق الوقت والوسائل لا يسمحان لي بالإطالة في هذا الموضوع، لذا سأعود إلى رحلتي.

استغللتُ وجود القوات في بنغازي للقيام برحلات استكشافية لاستكشاف الشريط الساحلي الممتد من المدينة إلى «رأس رأس سم». يقع الطريق على بُعد ميل تقريباً من البحر، حيث تغطي الرمال العالية الجزء الأوسط وتحجب الرؤية أحياناً. بعد أربع ساعات من المشي، يصل المرء إلى موقع يُسمى «زيانا»، وبالاستمرار ساعتين إضافيتين عبر أرض مغطاة بالآثار، نصل إلى «هادريان». لم يبقَ من هذه المدينة، التي تخلد ذكرى الإمبراطور هادريان، أي أثر محدد، إلا إذا كانت تلك الأطلال المنتشرة تابعة لها بالفعل. لم يذكرها بطليموس رغم أنه كتب في عهد ماركوس أوريليوس، لكنها وردت في مسار «أنطونين» وجدول «بوتينجر» باسم «أدرنة». ويسود شك بين علماء الآثار حول آثار هادريان في ليبيا، ومع ذلك نعلم من رواية إيليان أن الإمبراطور ذهب للصيد في ليبيا أثناء وجوده بالإسكندرية، ولا تزال هذه المنطقة غنية بالطرائد؛ حيث تُرى الغزلان تجري في أسراب، وترتفع طيور الحمام والحجل البربري مُحدثة ضجيجاً يجعلك تظن أن الأرض والهواء يتحركان.

بعد «درنة» بقليل، نصل إلى «بيرزيس»، وهو موقع يشير إليه برج متهدم جزئياً على تل قرب البحر وبقايا منازل قديمة. كانت «بيرزيس» مأهولة بالمور (المغاربة) في الماضي، لكن غارات البدو جعلتهم

منسيين، وقد بدأوا بتطهيرها سابقاً، أما الآن فهي مهجورة ومتروكة، باستثناء مياهها الممتازة التي تجذب البدويين أحياناً مع قطعانهم.

بمواصلة السير ثلاث ساعات أخرى، تظهر أطلال مدينة «توخيرا» القديمة على تلة قرب البحر، وهو الاسم الذي غُيِّر في عهد البطالمة إلى «أرسينوي»، ثم عاد ليصبح «توخيرا» كما تُعرف اليوم. يمتد بين التلة وسفح جبال قورينا سهل عرضه ثلاثة أميال صالح للزراعة. يحيط بالمدينة سور مربع محيطه ميلان تقريباً، تتزين زواياه بأبراج مستديرة. ظننتُ للوهلة الأولى أنه قلعة ضخمة، لكنه سور المدينة الذي لا يزال سليماً من ثلاث جهات، باستثناء الجانب المواجه للبحر. التلة المحيطة بتوخيرا مغطاة بآلاف المقابر، أما داخل المدينة فهو كتلة من الأطلال يصعب تحديد معالمها. يقف في وسطها نصب مربع من أحجار ضخمة عليها نقوش محاطة بإكليل غار، كما توجد بقايا معبد أعتقد أنه مكرس للإله «باخوس» نظراً لتيجان الأعمدة المزينة بأوراق وعناقيد العنب. جدران السور من الداخل مغطاة بنقوش يونانية كثيفة تكاد تكون سجلاً كاملاً للمدينة، لكن نوعية الحجر الرملي الكلسي الهش أدت لتدهورها.

إن بناء توخيرا وتصميم مقابرها، الذي يماثل طراز قورينا، يؤكد ما ذكره هيرودوت عن اتباعها قوانين القورينيين وموقعها قرب «برقا». ويتفق سترابو وبطليموس على موقعها بين «برنيس» وبطليموس، وهي حقيقة جغرافية لا تقبل الشك. أما ما ذكره الرحالة السيد بروس عن زيارته لأرسينوي وعدم وجود ما يستحق الاهتمام، فإنه يثير التساؤل؛ ويبدو أنه خلط بين «توخيرا» و»بطليموس» (طلميثة)، حيث وصف أسواراً وبوابات في بطليموس بينما الحقيقة أنني لم أجد أسواراً لبطليموس، والأسوار السليمة والنقوش هي في الواقع ملك لتوخيرا. كما أنه نسب رواقاً معمارياً لتوخيرا لا وجود له فيها بل هو في بطليموس. هذا التضارب يضعف مصداقية روايته التاريخية عن هذه المواقع.

تظهر بقايا المباني القديمة بين الحين والآخر خلال رحلة المشي

التـي تسـتغرق سـت سـاعات وتفصـل بيـن «توخيـرا» و»تولوميتـا» (طلميثـة)؛ لكـن المنظـر دائمًـا...

تُنعش التـلال المتنوعـة والخلابـة التـي ترتفـع أمـام المسـافر باتجاه رأس راس-سم ذهنـه وتُلهيـه عـن أفـكار تقلبـات الزمـن. تُشـير إلـى مدينـة البطالمـة مـن بعيـد، علـى بُعـد سـاعتين، بـرجٌ مربـعٌ ضخـمٌ يقـع شـرقًا علـى الحافـة القصـوى لهـذه السـهول. كانـت المدينـة، بقـدر مـا يُمكـن رؤيتـه مـن أطلالهـا، تقـع جزئيًـا علـى السـهل، وجزئيًـا علـى سـفح تـلٍّ يمتـد مـن جبـال قورينـا إلـى البحـر. تنتشـر أطلالهـا علـى مسـاحةٍ تُقـارب أربعـة أميـالٍ فـي محيطهـا، وهـي ذات طابـعٍ أروع مـن أي أطـلالٍ رأيتهـا حتـى الآن.

كان البـرج الـذي ذكرتـه يُعلـن عـن مدينـة البطالمـة مـن بعيـد؛ ولا يـزال قائمًـا فـي أقصـى غربهـا، ويُعتقـد عمومًـا أنـه قبـر أمرائهـا. إنـه بـلا شـك ضريـحٌ فخـمٌ مدعـومٌ بقاعـدةٍ مربعـةٍ ضخمـةٍ منحوتـةٍ فـي سـفح التـل، وفـوق هـذه القاعـدة يرتفـع بـرجٌ مـن أحجـارٍ مربعـةٍ هائلـة. المدخـل مثلـث الشـكل، مُشـكّل مـن أحجـار متراصـة، تبـرز مـن جوانبهـا المتقابلـة حتـى تلتقي لتُشـكّل رأس هـذا البـاب المثلـث. تحتـوي الجـدران الداخليـة علـى حُجيـرات مُرتبـة فـي عـدة طبقـات لاسـتقبال الموتـى. تنتشـر مقابـر مواطنـي بطليميـا، المبنيـة علـى نفس طـراز مقابـر قورينـا، بيـن أنقـاض المدينـة بأعـدادٍ كبيـرة، أعتقـد أنهـا تتجـاوز 4000 مقبـرة. فـي وسـط المدينـة، علـى أرضيـة فسيفسـائية، لا تـزال بعـض الأعمـدة الضخمـة قائمـة، مُكوّنـة مـن أسـطوانات مُكدّسـة فـوق بعضهـا. أسـفل هـذه الأرضيـة توجـد حجـرة تحـت الأرض، مُقسّـمة إلـى تسـعة ممـرات طويلـة تفصلهـا جـدران سـميكة، تسـتقبل الضـوء مـن الأعلـى.

ستلاحظـون مـن وصفـي أن الطـراز اليونانـي فـي جميـع أنحـاء منطقـة قورينـا يُدمـج دائمًـا تقريبًـا مـع أسـاس مصـري. لكـن مـا تبقـى مـن بطليمـوس يبـدو لـي مصريًـا خالصًـا، وكل شـيء مصمـم علـى هـذا النمـط، بدائـي، نعـم، ولكنـه ذو طابـع مهيـب وقمعـي. لا أسـتطيع أن أجـزم أيًّـا مـن البطالمـة أسـس هـذه المدينـة؛ فقـدت قورينـا حريتهـا بعـد وفـاة الإسـكندر بفتـرة وجيـزة، فـي

عهد أول البطالمة، ومنذ ذلك الحين ظهرت صور هؤلاء الملوك، إلى جانب رمز من رموز المقاطعة المكتسبة، على العملات القورينية. ومنذ ذلك الحين، وبعد أن أصبح البطالمة سادة معبد جوبيتر آمون، زيّنوا صورتهم على تلك العملات بقرون الكبش المصري؛ وحل النسر، ممسكًا بصاعقة بين قدميه، محلّ السيلفيوم وعجلة قورينا. أرسل إليكم بعضًا منها، ستتعرفون فيها على ملامح أول البطالمة، بشكل أفضل من الجبهة العريضة العظمية، والذقن البارز، والسن الذي يميل إلى الشيخوخة. على الجهة الخلفية يوجد تمثال نصفي منحوت لبيرنيس، بشعرها المجعد الذي يتدلى على كتفيها .

ولكن نظرًا لوجود سلسلة طويلة من البطالمة، فإن اسمي بيرينيكي وأرسينوي يتكرران بكثرة بين ملكات مصر، لدرجة أنني لم أتمكن من تحديد أيٍّ من هؤلاء غيّرت اسم هيسبيريس القديم إلى بيرينيكي، واسم توخيرا إلى أرسينوي. وقد عُثر على بعض هذه العملات بين أطلال بطليموس. ولكن إذا كان في صمت القدماء مجالٌ للتخمين، فأعتقد أن تأسيس بطليموس يعود إلى سابع البطالمة، المعروف باسم فيسكون. ففي الخلافات التي دارت بينه وبين أخيه تولوميوس فيلوميتور، عندما لجأ الأخير إلى روما، أصدر مجلس الشيوخ مرسومًا يقضي بأن يحكم فيسكون مصر وقبرص، بينما يحكم أخوه ليبيا وقورينا. ونتيجةً لذلك، أصبحت قورينائية مقر مملكته، ومن المرجح أن مدينة إقامته، التي ازدانت بالعديد من المعالم، تخلت عن اسمها القديم «بارسي» واتخذت اسم بطليموس. علاوة على ذلك، لا بد أن الضريح الملكي المهيب الذي شُيّد هنا كان من صنعه، إذ لم يكن من الضروري أن تُدفن قبوريميون هنا قبله، عندما كانوا يقيمون في مصر. ومن غير المرجح أن يكون قد شُيّد بعده، فمع حرص المصريين على مقابرهم، لم يكن أول ملك مصري لقورينائية ليرغب في أن يُدفن في عاصمته، دون تكريم، وسط المقابر الفخمة لرعاياه.

يؤكـد سـترابو[1] وبلينـي[2] وغيرهمـا مـن الجغرافييـن القدمـاء أن مدينـة بطليمـوس بُنيـت فـي نفـس الموقـع الـذي كانـت تقـوم عليـه مدينـة بـاركا القديمـة. إلا أن بطليمـوس يخالفهـم الـرأي، إذ يـرى أن مقـر بطليمـوس يقـع علـى البحـر، بينمـا تقـع بـاركا القديمـة علـى اليابسـة. يتحـدث هيـرودوت بإسـهاب وتكـرار عـن بـاركا، وعـن تأسيسـها علـى يـد أبنـاء باتـوس، وعـن نزاعاتهـا مـع قورينـا، وعـن مصيرهـا المأسـاوي علـى يـد الفـرس؛ لكنـه لا يُشـير فـي أي موضـع إلـى أنهـا كانـت تقـع بالقـرب مـن البحـر أو علـى اليابسـة. وقـد وفـر كتـاب «الطـواف حـول سـكيلاكس»، الـذي يحـدد موقـع هـذه المدينـة علـى اليابسـة علـى بُعـد مئـة سـتاديا مـن مينائهـا، وسـيلةً للتوفيـق بيـن الآراء المتضاربـة للجغرافييـن. لقـد وجـدتُ آثارهـا فـي هـذه الجبـال، فـي موقـع يُعـرف الآن باسـم «ميـرج» (المـرج)، ووصلـتُ إليهـا بعـد سـاعتين مـن المشـي عبـر مسـار سـريع جـدًا باتجـاه الريـح الجنوبيـة. تنتشـر فـي أرض منبسـطة آثـار مقابـر وبقايـا جـدران، مـع آبـار عميقـة جـدًا، لا يـزال بعضهـا يوفـر مياهًـا ممتـازة. الموقـع ريفـي، وعلـى الرغـم مـن كونـه أكثـر وعـورة، إلا أنـه يشـترك أيضًـا فـي ملامـح جبـال قورينائيـة التـي سـبق وصفهـا.

بطليميـا (طلميثـة) هـي آخـر المـدن التـي بناهـا القدمـاء عنـد سـفح هـذه الجبـال، أو أقصـى مدنهـا شـرقًا بالنسـبة لمسـاري هـذا. وبعدهـا، يختفـي خـط السـاحل، وترتفـع الجبـال شـاهقةً وعـرةً فـوق سـطح البحـر وصـولًا إلـى رأس راز-سـيم. لـذا، كانـت هـذه المدينـة نهايـة رحلاتـي مـن بنغـازي علـى طـول سـاحل برقـة.

بينمـا كنـتُ أتجـوّل فـي تـلال برقـة السـاحلية بحثًـا عـن الثـروات الطبيعيـة والمعالـم الأثريـة، كان الهـدوء يعـمّ بنغـازي. لقـد أضفـى احتفـال رمضـان علـى المدينـة رونقًـا جديـدًا، مُغيّـرًا روتينهـا المعتـاد تمامًـا. كان المسـلمون يصومـون بتقشـف شـديد، حتـى أنهـم ظلـوا بـلا طعـام مـن الصبـاح

1-سترابو، الكتاب 17.(المؤلف)

2-بليني، الكتاب 5. (المؤلف)

إلـى المسـاء؛ ولكـن مـا إن يحـلّ الليـل حتـى ينغمسـوا فـي تنـاول الطعـام ببـذخ، ويقضـون الليـل فـي لهـوٍ صاخـب. غارقيـن فـي الطعـام، وأحيانًـا فـي الخمـر، كانـوا يقضـون النهـار نائميـن، وهـم نائمـون يصومـون، حتـى أنهـم إذا مـا حـلّ الليـل، يعـودون لتنـاول العشـاء، مُواصليـن هـذه الاحتـالالات الليليـة الصاخبـة حتـى اليـوم التالـي. الآن أفهـم لمـاذا كان المسلمون يتوقـون إلـى أيـام التوبـة هـذه، كمـا يتـوق إليهـا شـبابنا فـي الكرنفـال. ولكـن لا شـيء أشـدّ ملـلًا علـى أوروبـي لا يُشـارك فـي طقوسـهم، ويضطـر للأسـف إلـى التعامـل معهـا. خـلال النهـار، يغلـب النـوم علـى الجميـع، والويـل لمـن يجـرؤ علـى إزعاجهـم مـن احتفالاتهـم الصاخبـة فـي الليـل.

فـي غمـرة هـذا الهـدوء العـام، كانـت مؤامـرة خبيثـة تُحـاك لتُنهـي هـذه الحملـة، التـي ظلـت حتـى ذلـك الحيـن طاهـرة. لـم تكـن قبيلـة الجـوازي قـد كفّـرت بعـد عـن ذنـب دعمهـا للمتمـرد. بـل إنهـا انفصلـت عنـه قبـل وصولنـا، وأرسـلت طواعيـةً اثنيـن وعشـرين رهينـة إلـى طرابلـس كدليـل علـى ولائهـا، كمـا رحّبـت ترحيبًـا حـارًا بالبـاي وقواتـه. لكـن لـم يكـن هنـاك مـا يُقنـع الباشـا بـأن هـذه المشـاعر لـم تكـن نابعـة مـن الخـوف. مـن النجـاح، يبـدو أن تعليمـات الباشـا كانـت إخفـاء الماضـي وتأجيـل الانتقـام إلـى الوقـت المناسـب. انخـرط الباشـا وحاشـيته تمامًـا فـي مخططـات الباشـا حتـى أصبـح الجـوازي أكثـر رعايـاه قربًـا إليـه؛ ولـم يُذكـر شـيء سـوى إخلاصهـم الـذي أظهـروه بانضمامهـم تحـت رايـة الباشـا لطـرد المتمـرد. لـم يمـر يـوم دون أن يسـتدعي أحـد قادتهـم، ويُعيدهـم مُفعميـن بالكـرم والضيافـة. كان وراء هـذا المظهـر الـودي خطـة لإبادتهـم، ثـم إبـادة القبيلـة بأكملهـا إن نجـح؛ لكـن تنفيذهـا علنًـا كان محفوفًـا بالمخاطـر، إلا إذا سـقط القـادة فجـأة ودون سـابق إنـذار، وفوجئـت القبيلـة بموتهـم المفاجـئ. وفـي هـذه الأثنـاء، انتشـرت شـائعات بـأن البـاي قـد حصـل مـن والـده علـى إذن لتوزيـع مشـروب البرنوسـو الأحمـر، فـي احتفـال مهيـب، علـى زعمـاء هـذه القبيلـة، تقديـرًا لولائهـم لـه.

فـي هـذه الأثنـاء، غـادر أحـد أبنـاء هـذه القبيلـة، وهـو مـن قبيلـة شـاوس،

طرابلس متوجهًا إلى بنغازي، حاملًا تعليمات سرية من الباشا، وكان قد خدم الباشا طويلًا، وقدم خدمات جليلة لأبناء وطنه في مناسبات عديدة، وكان يحظى بتقدير كبير منهم. ولدى وصوله إلى بنغازي، أجرى مفاوضات مطولة مع الباي ومع حاكم مصراتة، مستشار الباي المقرب وخبير الخيانة. وبعد مناورات عديدة غامضة، غادر هذا الشاوس إلى برقة، وحمل بنفسه إلى قبيلته دعوة الباي للحضور جميعًا إلى بنغازي للمشاركة في توزيع مشروب البرنوسو الأحمر على زعماء القبيلة. وأضاف، بثقةٍ بالغة، أن الباشا رفض في البداية طلب ابنه، لكن ابنه أصرّ بشدة حتى استجاب الباشا لتوسلاته، وحصل على إذنٍ بالمجيء وإبلاغهم بهذا الخبر السار. ويُقال إنه عند هذه الدعوة، تجرأ بعض البدو على التعبير أمام القبيلة بأكملها عن شكوكهم في الخيانة؛ لكن الأمر كان قد حُسم، وكان لا بد إما من إظهار التمرد الصريح أو الاستسلام للتصديق الأعمى. علاوة على ذلك، فإن مراسم الجنازة المستمرة للباي، وروعة بيرنوسو الأحمر، قد أبهرتا عقول زعماء البدو، وقرروا قبول الدعوة والسفر إلى بنغازي في الموعد المحدد. وقد أثار هذا النبأ فرحة عارمة. كان سكان المدينة مهتمين حقًا بهذا السلام، مما طمأن المدينة بشأن المستقبل، واختتم الحملة بمشهد عام مهيب.

في اليوم الموعود، عند غروب الشمس، ظهرت قبيلة زواسي بأكملها أمام بنغازي، وقد غطت قطعانها وخيامها السهول المحيطة. ولما رأوا أنفسهم أمام مدينة كانت قبل أيام قليلة مسرحًا لثورتهم، والتي باتت الآن تحاصر داخل أسوارها الجيش الذي أخضعهم، عاد إليهم ندمهم. أولئك الذين ترددوا سابقًا في المغادرة استغلوا الخوف الذي انتشر بين الجموع ليجددوا شكوكهم، مستذكرين مظالم الماضي ومقترحين ألف مؤامرة غادرة أخرى حُبكت بنفس الدهاء. صدمت كلماتهم القبيلة، التي كان الخوف قد تملكها، لدرجة أنه تقرر أن يدخل القادة فقط إلى المدينة لتلقي التكريمات الموعودة، بينما يبقى باقي أفراد القبيلة محصنين في

معسكراتهم.

في اليوم التالي، الخامس من سبتمبر، دخل هؤلاء المنكوبون، وعددهم خمسة وأربعون، بنغازي في موكب مهيب، وانطلقوا نحو القلعة. استقبلهم الباي بحفاوة، وبوجه بشوش وكلمات رقيقة، داعبهم، وبدأ يُدخلهم واحدًا تلو الآخر إلى القلعة. وما إن يدخلوا حتى يُقدم لهم القهوة، ويُدخلهم هو بنفسه إلى صحبتهم، وبينما هم، وقد غمرتهم هذه اللفتة الرقيقة، يستسلمون لفرحة المصالحة الصادقة، يخرج حراس الباي من الغرف المجاورة، وسيوفهم مسلولة، وينقضون على هؤلاء المنكوبين. من تجرأ على مقاومة الهجوم الأول قُتل، أما الآخرون، فقد جُرّوا إلى غرفة مجاورة، وقُتلوا واحدًا تلو الآخر. أما القلة الذين حاولوا الفرار في خضم المعركة، فقد قُتلوا برصاص البنادق. وكان هناك من تسلقوا إلى أعلى القلعة، وألقوا بأنفسهم من النوافذ السفلية، حيث فوجئوا بسقوطهم، فلقوا حتفهم تحت ضربات الجنود المتمركزين حول القلعة.

أعقب هذا المشهد المروع اضطرابٌ في صفوف القوات، مما أدى إلى فوضى عارمة في المدينة بأكملها. وما إن وقعت الكارثة حتى أمر حاكم ميسوراتا القوات بالتجمع على عجل لمهاجمة قبيلة زواسي فجأة. كانت الفرسان تجوب المدينة في حالة من الفوضى، بينما كان العبيد والجنود يتجولون في الشوارع في حالة من الذعر، يصرخون في حيرة من أمرهم، لا يعلمون سبب هذا التحرك المفاجئ. أما السكان، الذين اعتادوا أن يكونوا ضحايا لهذه الاضطرابات، فقد خلقوا مشهداً من الرعب لا يمكنني وصفه. وفي خضم هذه الفوضى العارمة، توجهتُ إلى القلعة.

شعرتُ وكأنني أبحث عن مكان آمن. ما زلت أشعر بالرعب وأنا أتذكر أولئك المساكين ملقين على الأرض، يتلمسون طريقهم وسط الدماء المتدفقة من جراحهم. كان الباي في الرواق على صهوة جواده، وبندقيته مثبتة بين مماليكه، يصرخ كالمجنون، لأن سلاح الفرسان كان بطيئًا في

التجمع والاصطفاف. كان هذا التأخير بمثابة طوق نجاة لأهل الجوازي، الذين ما إن، لا أدري كيف، تنبهوا إلى الفوضى في بنغازي، حتى هجروا خيامهم وقطعانهم على عجل وفروا هاربين، متفرقين في الجبال القريبة. اندفع الباي، على رأس سلاح فرسانه، بتهور إلى معسكراتهم، حيث بقيت النساء والأطفال ومن لم يجدوا وقتًا لإنقاذ أنفسهم. كل رجل وطفل هناك قُطّع إربًا. دُهست النساء أولًا تحت وطأة الخيول، ثم تُركن فريسةً لوحشية الجنود. جلبت الغنائم من المعسكر للباي 4000 جمل، و10000 رأس من الأغنام، و6000 ثور، والعديد من العبيد، بالإضافة إلى الكثير من المال؛ وأمتعتهم التي أصبحت فريسة للجنود.

بعد أيام قليلة من وقوع الجوازي ضحية سذاجتهم، سقط الرهائن الـ 22 الذين أعادهم الباشا بحراً من طرابلس تحت ضربات قطاع الطرق التابعين للباي، بعد أن أوهمهم بأنهم سيُطلق سراحهم في اليوم نفسه، وأن أبناء جلدتهم سيستلمون بيرنوسو الأحمر. لكن ما ثبت صحة هذه الوعود هو أنهم، للأسف، كانوا جزءاً من هذا المشهد المأساوي. جُرّوا واحداً تلو الآخر إلى حافة السفينة، ثم ذُبحوا وأُلقوا في البحر. كان من بينهم صبيان، أحدهما في الخامسة والآخر في السابعة. أُلقيت جثتاهما على الشاطئ أمام المدينة، لكن لم يجرؤ أحد على دفنهما، فأصبحا فريسة للكلاب.

وفي خضم هذه الفوضى، اقترب بعض الجوازي، بدافع الفضول، من المدينة بينما ذهب رفاقهم إلى الباي، وقد فوجئوا بهذا الحدث ويئسوا من الوصول إلى قبيلتهم، فلجأوا إلى مارابوتو يُدعى أويسيا، من المكان الذي يقع فيه قبره. لم يجرؤ الباي على اقتحام هذا الملجأ، فأمر ألا يُقدم لهم أحدٌ أي مساعدة، وحاصر الضريح بجنوده، واثقًا من أن الجوع أو سيوف عبيده ستُهلكهم. كانت المدينة بأكملها تُتابع بصمت مصير هؤلاء المنكوبين. في اليوم الثالث، انفجر نبع ماء من ضريح مارابوتو، ووُجدت الأرض المحيطة به مُثقلة بالتمر وأنواع أخرى

مـن الطعـام، فالتهمهـا الرجـال الجائعـون بشـراهة. توافـد سـكان بنغـازي والمناطـق المحيطـة بهـا لمشـاهدة هـذا الحـدث العجيـب. لـم يحـظَ مارابوتـو بمثـل هـذه الشـهرة، لكـن البـاي مُنـي بالإهانـة والازدراء.

سننطلق فـي غضـون أيـام قليلـة إلـى طرابلـس: أنـا، ممتلـئ بالنـدم علـى المشـهد الدموي الـذي مـر أمـام عينـي، البـاي وحاشـيته، يحزنـون حقًـا لعـدم تمكنهـم مـن الانتقـام الكامـل مـن أعدائهـم، لكنهـم يعـزون أنفسـهم بالكنـوز التـي نهبوهـا خـلال هـذه الحملـة.

نهاية.

من رأس مصراتة، حتى خط عرض °30 ′27 10 ″ شمالاً،
من السيد الكابتن لوثير.

عند الاقتراب من رأس مصراتة[1] من الغرب، على بعد حوالي ثلاثة فراسخ، يظهر الرأس على شكل ثلاث تلال صغيرة تشبه ثلاث جزر صغيرة. ومع اقترابك منه، تظهر بعض أشجار النخيل بين كل تلة، وزاوية[2] صغيرة في أقصى نقطة غربية. من هذا الرأس، للوصول إلى محطة مصراتة، ثم يُبحر المرء جنوب غرباً لمسافة فرسخ ونصف؛ ثم يكتشف تلاً أبيض صغيراً مخروطي الشكل؛ وإلى الشرق من هذا التل توجد منطقة مسطحة مغطاة بأشجار النخيل. وإلى الشرق من أشجار النخيل هذه، وعلى بُعد ربع فرسخ، ترتفع هضبة حمراء اللون، يعلوها ضريح[3]. من هنا، مع توجيه السفينة بحيث تُبقي هذه الهضبة في اتجاه الجنوب الغربي، وعلى بُعد ربع فرسخ، يُسقط المرء المرساة في ست قامات[4] من الماء على القاع الطيني. خط العرض هو °32 ′26 ″15.

إذا رغب المرء في الإبحار على طول الخليج من هذا المرسى، فعليه الإبحار جنوباً بمقدار ربع ميل. بعد الإبحار لمسافة ميلين ونصف، سيجد نخلة وحيدة تشبه السفينة. عندئذٍ، عليه البقاء بعيداً قليلاً عن هذه النخلة، والإبحار على مسافة ربع ميل من اليابسة، في مياه عمقها ست قامات فوق قاع بحر «أبيض وأسود».[5] عندما تبقى النخلة غرباً، سيجد المرء على الجانب المواجه لليابسة شعاباً مرجانية مقابلة لها تماماً، أي أن النخلة غرباً والشعاب المرجانية شرقاً، على بعد ميلين من اليابسة.

1-رأس مصراتة: (قصر أحمد حالياً) نقطة بداية خليج سرت. (المراجع)
2-زاوية: (المرابط) مبنى ديني أو ضريح ولي، استُخدم كعلامة ملاحية. (المراجع)
3-ضريح: مرجع أرضي بارز للبحارة. (المراجع)
4-قامة: (Fathom) وحدة قياس عمق تساوي 1.8 متر تقريباً. (المراجع)
5-أبيض وأسود: وصف لقاع البحر الرملي المرقط بالحصى الداكن. (المراجع)

يمتد هذا الحاجز المرجاني لمسافة فرسخ من الشرق إلى الغرب، ولا يقل عمقه عن 14 إلى 17 قدماً. وفي حال كان البحر هائجاً، يجب تجنب هذا الخطر، حتى بالنسبة للسفن الصغيرة.

إذا رغبت في الرسو هنا، فعليك مواصلة الإبحار على طول الساحل حتى تبقى شجرة النخيل على اليابسة. حينها يمكنك إلقاء المرساة على عمق سبعة أو ثمانية قامات، على قاع رملي ناعم. المرسى آمن من الرياح الجنوبية إلى الشمالية. يُسمى هذا المكان عرار.[1] انطلاقاً من عرار وصولاً إلى عيسى،[2] التي تبعد 17 فرسخاً عن المحطة الأولى داخل الخليج، يستمر المرء على طول الساحل كما ذُكر سابقاً. ويتميز هذا الساحل بأكمله بانخفاضه ولونه الأبيض ونعومته التي تُضاهي نعومة اليابسة. أما قاع البحر، على نفس المسافة، فيتكون من رمال ناعمة يتراوح عمقها بين 6 و8 قامات.

بعد ثلاثة عشر فرسخاً، سترى أرضاً سوداء مزدوجة، بعيدة عن البحر، عليها قلعة قديمة. هنا، قاع عشبي وطين تحت أربعة إلى ستة قامات من الماء. عندما تصبح القلعة بين الجنوب الغربي والغرب، وعلى بعد ثلثي فرسخ من اليابسة، ستكون قد وصلت إلى عيسى، حيث يمكنك الرسو في مياه يتراوح عمقها بين ثلاث وأربع قامات. يمكنك البقاء هنا في جميع الرياح، نظراً لضحالة المياه التي تمتد من ثلاثة إلى أربعة فراسخ. من جزيرة عيسى[3] يمتد الساحل جنوباً وشرقاً؛ قاع البحر يتكون جزئياً من رمال ناعمة، وجزئياً من طين؛ القارة منخفضة، والتربة سوداء. في كل هذا الامتداد من رأس مصراتة إلى هذا العمق، لا يوجد خطر لا فوق الماء ولا تحته؛ وبالتالي يمكن للمرء أن ينزلق بحرية على طوله، على مسافة ربع فرسخ من الأرض.

1-عرار: مرسى تاريخي شرق مصراتة. (المراجع)
2-عيسى: منطقة «قصر العيسى» في عمق خليج سرت. (المراجع)
3-جزيرة عيسى: تكوين ساحلي ضحل في منطقة السبخات. (المراجع)

بمواصلة السير على طول الساحل لثلاثة فراسخ، تُترك الأرض السوداء خلفنا لنكتشف شاطئاً أبيض ناصعاً، تتناثر على ضفافه أكوام من الرمال. وعلى كل كومة منها نبتة تشبه الأثل،[1] يتراوح ارتفاعها بين قدمين وثلاثة أقدام، ويمكن رؤيتها من مسافة بعيدة بفضل بياض رمالها. في هذا الموقع، على بُعد ثلث فرسخ من اليابسة، يبلغ عمق الماء 23 قامة، وقاعه صخري. بمواصلة السير على طول الساحل لمسافة فرسخين آخرين، ستكتشف شريطاً من الرمال يمتد إلى البحر لمسافة فرسخين ونصف تقريباً؛ وهناك قلعة على مرتفع صغير، على بعد فرسخ واحد من الشاطئ. عند الاقتراب من لسان اليابسة، تظهر صخرتان صغيرتان على بُعد ثلاثة أرباع فرسخ من القارة. يمكن المرور بينهما وبين لسان اليابسة، مع الحرص على البقاء أقرب إلى الصخرتين من القارة، وذلك بفضل دوامة مائية في القاع، تقع فوق شريط رملي يبعد حوالي حبلين،[2] في مياه يبلغ عمقها ستة أقدام على قاع صخري.

يقع جنوب النقطة مدخل مائي كبير، وفي أعمق نقطة فيه، يمكن رؤية بعض الآثار على الشاطئ. إذا بقيت هذه الآثار في الجنوب الغربي، يزول الخطر تماماً. عندئذٍ، يُغيّر المرء مساره باتجاه هذه الآثار، ويمكنه إلقاء المرساة على بُعد ربع فرسخ بحري في عرض البحر، حيث يكون في مأمن من جميع الرياح. يجب رفع المرساة مرة واحدة كل 24 ساعة فقط لتجنب خطر فقدانها في كمية الطين الكبيرة المتراكمة هنا. على بُعد ثمانية فراسخ شرق رأس الرمل،[3] يقع حاجز مرجاني يتراوح محيطه بين أربعة وخمسة فراسخ، وتغطيه مياه يتراوح

1-الأثل: شجر (Tamarix) ينمو بكثرة على السواحل الرملية الليبية. (المراجع)
2-حبلين: (Cables) وحدة مسافة بحرية (الحبل الواحد حوالي 185 متراً). (المراجع)
3-رأس الرمل: لسان رملي بارز في الخليج. (المراجع)

عمقها بين ثلاثة وثلاثة عشر قدماً. جنوب هذا الحاجز المرجاني تقع جزيرة صغيرة، يبلغ ارتفاعها حوالي أربعين قدماً، وتبعد مسافة فرسخين ونصف وثلث عن هذا الحاجز المرجاني الخطير. تحتوي هذه الجزيرة الصغيرة والشعاب المرجانية على سهل رملي حيث يمكن للمرء، إذا لزم الأمر، أن يلقي المرساة في خمسة قامات من الماء، ويكون في مأمن من الرياح الشمالية؛ ولكن في كل رياح أخرى يجب على المرء أن يبحر. أما بقية الخليج على الجانب الغربي فليست معروفة.

يمتد هذا الساحل بأكمله من رأس توكرة[1] إلى بنغازي، مشكلاً سلسلة جبال متصلة، تبعد حوالي ثلاث فراسخ عن الشاطئ؛ هذا الامتداد بأكمله عبارة عن شاطئ رملي. يمكنك الإبحار لمسافة ربع فرسخ؛ ويمكن رؤية قاع البحر بعرض فرسخين، وهو موحل وأبيض. لا يوجد خطر على طول هذا الساحل، باستثناء صخرتين صغيرتين بالقرب من طلميثة،[2] على بعد 11 فرسخاً جنوب غرب رأس توكرة، حيث يمكنك إرساء المرساة شرقهما.

يقع ميناء بنغازي[3] على حافة هذه السلسلة الجبلية. علامته المميزة قلعة مربعة الشكل، تظهر عند الدخول؛ ويمكنك أيضاً رؤية مأذنة وبعض أشجار النخيل على الجانب الشرقي. على الجانب الجنوبي الغربي، عند رأس جوليانا.[4] الواقعة على يمين المدخل، توجد أشجار نخيل أيضاً. مدخل هذا الميناء شديد الصعوبة، إذ يستحيل الدخول إليه بأمان دون تدريب كامل، ومن الأفضل انتظار مرشد بحري خارج الميناء. لمواصلة دخول الخليج من بنغازي، يجب الإبحار مسافة فرسخين بحريين من رأس تاجوني.[5] بسبب حاجز مرجاني يبدأ من

1-رأس توكرة: مدينة توكرة الأثرية شرق بنغازي. (المراجع)

2-طلميثة: (Tolmeita) الميناء الأثري التاريخي. (المراجع)

3-بنغازي: (برنيق القديمة). (المراجع)

4-رأس جوليانا: اللسان الصخري المحيط بميناء بنغازي. (المراجع)

5-رأس تاجوني: منطقة «تيكا» حالياً جنوب بنغازي. (المراجع)

رأس جوليانا ويمتد إلى محطة تاجوني، الواقعة على بعد خمسة فراسخ بحرية من بنغازي. يتميز هذا الساحل بأكمله بلونه الأحمر وانخفاضه الشديد. بمجرد تجاوز الحاجز المرجاني، يظهر منظر طبيعي أبيض، تتخلله ثلاث كثبان رملية وقلعة مهدمة تقع أقصى الكثبان الرملية جنوب غرب الخليج. عند الوصول إلى أقصى نقطة جنوبية لهذه القلعة، يزول خطر الحاجز المرجاني، وعندها يتجه المرء نحو القلعة، ليدخل خليجاً صغيراً يشكل مرسى تاجوني الآمن. عند الاقتراب منه، يلاحظ المرء بعض الصواري وقلعة أخرى على الجانب الأيمن؛ بمجرد توجيه هذه القلعة نحو الجنوب الغربي، يكون قد تجاوز القاع الصخري، ويصبح باقي المرسى قاعاً رملياً.

عند السفر من تاجوني إلى كاركورا.[1] يمتد الساحل بأكمله بلون أبيض ناصع، تتخلله هنا وهناك تلال رملية صغيرة. بعد الإبحار لمسافة ثلاثة عشر فرسخاً، سيظهر رأس صخري شديد الانحدار، يمتد حوالي فرسخين في البحر، وهو يُشير إلى ميناء كاركورا. لتدخل كاركورا، عليك أن تحاذي الرأس قدر ما تشاء. من هناك، ستكتشف مدخلاً مائياً واسعاً يشكل ميناء كاركورا. يبلغ محيط هذا الميناء فرسخين، ويحيط به خمسة قامات من الماء في كل مكان، فوق طبقة من الرمال المتصلبة. في قاع هذا الخليج، توجد بئر مياه عذبة.[2] تُستخرج من أعماق سحيقة، خاصة في فصل الصيف. وهي دائرية الشكل، وبها درج داخلي يسهل الوصول إليه. كل عشر درجات منها توجد نقوش محفورة. كانت تلك البئر تحمل نقوشاً باللغة اليونانية، وفي شهر سبتمبر، تطلّب سحب المياه منها استخدام حبالٍ وصل طولها إلى 83 قامة.

على بُعد خمسة فراسخ من كاركورا، تلوح قلعتان أثريتان تقعان

1-كاركورا: منطقة كاركورة الساحلية. (المراجع)

2-بئر مياه: إشارة إلى بئر «مقرا» أو بئر كاركورة الأثرية المشهورة بنقوشها. (المراجع)

بالقرب من الساحل، وهناك يبدأ ظهور قاعٍ أبيض متناسق على عمقٍ يتراوح بين 11 و12 قامة. تتسم المياه في هذه المنطقة بالعكورة، وإذا ما هبت رياح جنوبية، فإنها تنقل إلى السفينة كميات ملحوظة من غبار الكبريت.[1] وبمواصلة الإبحار جنوباً لمسافة أربعة فراسخ، تصفو المياه تدريجياً ويصل العمق إلى 18 قامة. وبعد ثلاثة فراسخ إضافية، ينحسر العمق فجأة ليصل إلى أربعة قامات فقط فوق طبقة طينية؛ وتتميز التربة هناك بسوادٍ شديد في فصل الصيف، بينما تكتسي بالكامل بالغطاء النباتي شتاءً، ويمتد هذا النطاق لمسافة فرسخين.

وبعد تجاوز هذه المنطقة، يظهر رأس أبيض مع ثلاث صخور ضخمة تقع إلى غربه. وكلما اقترب المرء منه، يجد قاعاً عشبياً موحلاً يمتد حتى تلك الصخور. ينقسم طرف الرأس إلى جزأين، ويشكل مع الصخور مرفأً جيداً. يمكن للمرء المرور بين الرأس والصخور دون مخاطرة؛ حيث يكون المرء في مأمن من كل الرياح، ويمكن ربط الحبال إما فوق الصخور أو على البر. تقع إحداثيات خط العرض لهذا الموقع عند °30 ′35 ″26. خلف هذه الصخور من الناحية الجنوبية، يمتد سهل بحري ضحل لمسافة فرسخين وثلاثة فراسخ. وفي أقصى الطرف الجنوبي لهذا السهل، تظهر صخرتان أخريان لا تتوفر عنهما أي معلومات. تماماً كما هو الحال مع بقية الخليج.

1-غبار الكبريت: ظاهرة ناتجة عن التكوينات الجيولوجية والسباخ في جنوب الخليج. (المراجع)

قوة باشا طرابلس (إحصاء عسكري)

أولاً: بطاريات مدفعية مدينة طرابلس

الموقع ونوع البطارية	عدد المدافع	العيار	الملاحظات
البطارية الجديدة	40 مدفع حديد	عيار 24 و 8	-
الحصن الفرنسي	8 مدافع حديد	عيار 6 و 8	في حالة سيئة جداً
بطارية (غير محددة)	18 مدفع حديد، 6 برونز	عيار 12	-
بطارية (غير محددة)	7 مدافع حديد	-	-
البطارية الرئيسية	9 مدافع حديد	4، 8، 12، 18، 24	في حالة سيئة
البطارية البرونزية	12 مدفع برونز	12، 18، 24، 32	في حالة جيدة
بطارية (غير محددة)	17 مدفع برونز	12، 18	في حالة ممتازة جداً
الحصن الإنجليزي	12 مدفع حديد	عيار 24	في حالة جيدة
السراي (القلعة)	-	8، 12، 24	في حالة جيدة

ثانياً: القوة البحرية (الأسطول)

1 فرقاطة: مجهزة بـ 24 مدفعاً.

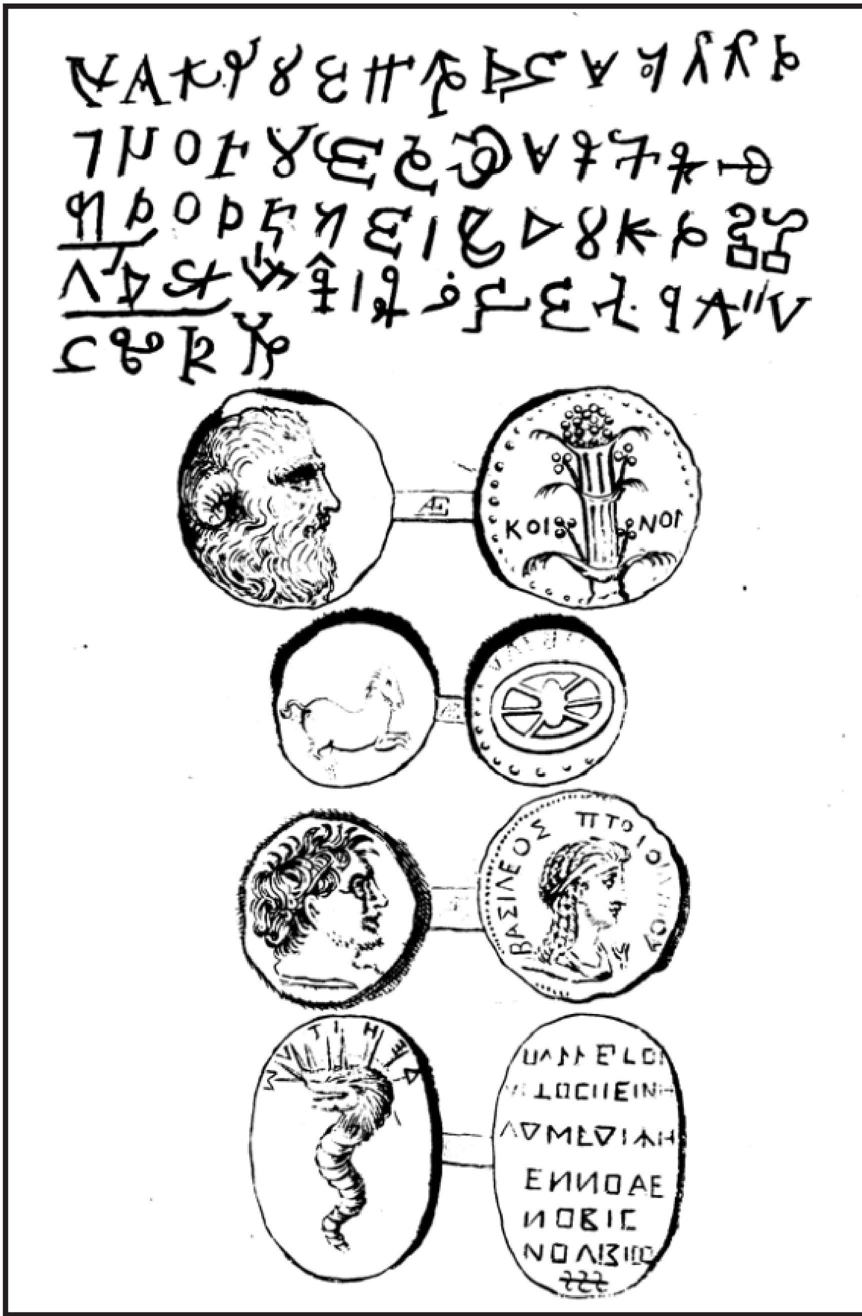
2 بولاكا (سفن نقل مسلحة): مجهزة بـ 16 قطعة مدفعية.

2 بولاكا: مجهزة بـ 14 قطعة.
2 بولاكا: مجهزة بـ 12 قطعة.
4 شباك (Sciabecchi) بأشرعة مربعة: مجهزة بـ 10 مدافع.
2 شباك بأشرعة لاتينية: مجهزة بـ 6 مدافع.
14 لانش (زوارق مدفعية): تحمل كل منها قطعة واحدة من عيار كبير.
6 سفن نقل ضخمة (Bovi): تحمل قطعة واحدة من عيار كبير.
6 سفن تجارية: يتم تسليحها وقت الحرب.

ثالثاً: القوة البرية والبيانات السكانية

المشاة: 30,000 جندي.
الفرسان (الخيالة): 15,000 فارس.
المدفعية الطائرة: 30 مدفعاً (عيار 4 و 8).
إجمالي عدد السكان: 650,000 نسمة.[1]

1-»إنّ القذائف (الكرات) في جميع البطاريات هي من عيارات مختلفة.» (المؤلف)


ΚΟΙ
ΝΟΙ
ΒΑΣΙΛΕΟΣ

كشاف عام

أعلام

أماكن

قبائل وجماعات

أسلحة ومعارك

نظم وإدارة وعملات

تُوثق مذكرات الطبيب الإيطالي باولو ديلا شيلا خلال رحلته الاستكشافية التي رافق فيها حملة "أحمد باشا القرامانلي" العسكرية عام 1817 لقمع تمرد أخيه، حيث استغل التغطية الأمنية للحملة للوصول إلى مناطق نائية لم تبلغها البعثات العلمية المعاصرة له. ويمزج الكاتب في مذكراته بين المشاهدات العسكرية والسياسية، والتوثيق الأثري الدقيق لأطلال الحضارات الفينيقية واليونانية والرومانية في مدن مثل لبدة وقورينا، مع تقديم تصحيحات جغرافية هامة لخرائط كلاسيكية وتقارير ملاحية لساحل خليج سرت. كما تبرز القيمة العلمية للنص في رصده الدقيق للتنوع النباتي، لا سيما بحثه عن نبات "السيلفيوم" الأسطوري، ووصفه للطبيعة الجيولوجية ومصادر المياه، فضلاً عن تقديم صورة حية للحياة الاجتماعية والعادات البدوية، مما يجعل هذا العمل مرجعاً بانوراميا ًيربط بين تاريخ المنطقة القديم وواقعها الجغرافي والثقافي في القرن التاسع عشر.

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية